بريد الآلهة

قصص قصيرة

دار الفراعنة للنشر والتوزيع

مجموعة قصصية

بريد الآلهة

أسم المؤلف: ميثم الخزرجي

الطبعة الثانية

–

التدقيق اللغوي: دار الفراعنة

التجهيزات الفنية والطباعة:

دار الفراعنة للنشر والتوزيع

- رقم الإيداع: 10608 / 2025م
- الترقيم الدولي: 2 – 44 – 8883 – 977 – 978

- الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الدار، بل تعبر عن رأي المؤلف في المقام الأول.
- حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة، للناشر، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا، أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف ومن الناشر.

ميثم الخزرجي

بريد الآلهة

(المجموعة القصصية الفائزة في مسابقة الاتحاد العام
للأدباء والكتاب في العراق لنتاجات الشباب 2019)

قصص قصيرة

٢٠٢٥

الإهداء

إلى المتَّقِدِ معنىً وإنسانيةً

المتمسّكِ بالوعي دالَّةً للحياةِ

إليه دائمًا وأبدًا

إلى والدي الراحل

محمد علي كاظم الخزرجي

مصادفةٌ لا يقبَلها الصفحُ[1]

(1)

ما إن تعمَّد عمرُ المدينةِ بيومٍ آخر قابلٍ للزوالِ ليُدّخر في خزائنِ الرّبِ، بكلِّ ما اعتزمتهُ نوايا الغارقين في هوس الحياة، هيأ مرهون الحمّال عربتَهُ العتيدةَ، وراح يوغل في مداخل السوق التي ما انفكت عنها جَلَبَةُ المتبضعين، علّهُ يلتفت إليه الحظُ بإيماءةٍ من أحدهم، فيما إذا اختصتهُ أحاديثهم المبللةُ بالدهاء، أطفأ غايتَهُ غرضاً، ليمضي وعلامات التجهم التي رافقته، ليعتمر مزاجه بعددٍ من السجائرِ المغشوشةِ، مُغْضِيَاً عن التأنيب الذي ألحَقَ به الضرر وجعله مترعاً بالحنق، يركن عربتَهُ بمحاذاةِ الجادةِ المقابلةِ لبيتهِ ليأخذهُ العنادُ، إلى حيث ما لم يكنهُ القصدُ، ما كان لسيل الأقاويل التي طفحت هزءاً، إلاّ وتصدرها

---

١. نشرت في مجلة الأقلام التابعة لوزارة الثقافة العراقية، العدد الأول، السنة الثانية والخمسون/مايس/٢٠١٩.

الحمّالُ بحكايته المضفورة بالليل والسخرية، هذا وقد أسرف بعضٌ من الذين أطالتهم سوأته، وما ألزمته من دونية لينفروا من تلك البراثن، التي تُنذرهم بالشؤم على أمدٍ بعيد، من يعرف الحمّالَ عليه أن يقرأ المعوذتين سلفاً، ليتمادى بتخمينات إلى حيث ما تتهادى مخيلته، عبثاً، أو جزعاً فللأثنين مرارتهما التي ترجئ الذهنَ إلى مقبوليتها، أو التجاوبَ معها، قبل عامٍ من الآن وفي الشهر الذي أغدق الله به شآبيبَ المطرِ كان لسكان المدينة الذين يقطنون أطرافها قد ألهمتهم حاجتهم الماسة شوطاً من العوز وراحوا يمتهنون الزراعةَ وتحميلها إلى الأسواق على أنَّها المصدر الأوفر حظاً في تلك الفترة.

وفي ليلةٍ راكسةٍ بالنومِ والظلامِ اعتزم مرهون على غير موعده لنقل الثمر المصفوف إلى محاجر السوق، أطرق وعربته العرجاء إلى غايته المحفوفة بنباح الكلاب، وهناته التي خلّفتْها له زوجته مرزوقة ولسانُها السليط وراح يكاشف الطريقَ بعذاباته الممضة، عند انتصافه المكان المحدد لنقل المحصول الذي أودع له حانت له ارتماقةٌ من الضوء كانت على مَقرُبَةِ منه، أوقف عربتَهُ التي

أحـدثت صـخباً غيـر متنـاغمٍ ليُمهِـل نفسـه قسـطاً مـن الـتفحص، هـذا وقـد أثـارت اختلاجـاتُ الرعـدِ المتـواترِ فيضاً من الصدع التي أجازت له كمَّ الدخانِ الذي ارتشفه ليُمعِنَ النظر جيداً بعينين لا تعوزهما القسوة والضجر، زاماً على شفتيه العريضتين مقبضاً على كتل الأكياس المعبأة بالثمر وأولى بنهمٍ تحميلها الواحدَ تلو الآخر، لما استدار إلى حيث ما آلت إليه عيناه من إدراكها للأشياء، ارتفع صوتٌ أشبهُ بالصفيرِ مصحوباً بوهجٍ غرائبي ذي وفرةٍ كاسحةٍ من تقاذفِ الرياح لتشرعَ بأشياءَ منقطعةِ اليقينِ بل لا يألفها العقلُ لتبدو الموجودات جميعُها غارقةً بالصيحةِ معلنةً الذبول، انسحب الحمّالُ بصورة أكثرها التباطؤ مشدوداً بهذا الوهم/الحقيقة الذي صار على مقربة منه، لم تعد قدماه تطاوعانه على حمل جسده الهائم بهذا المشهد، انقضَّ بإحدى يديه على دشداشته ليعضَّ بأسنانه المفرومة على أطرافها البالية مبادراً بالفرار، لكنه أخفق فيما أراده، ارتسم له المشهدُ على هيأة فتاةٍ دسمةِ الأنوثةِ ذاتِ ملامحَ تربو إلى الملاك متبوعةً بابتسامةٍ شبقيةٍ لا تخلو من مكرٍ، تدنو بشراهةٍ

جذلى مع نصاعةِ ذلك الجسدِ البضِ ليتماهل بعفويةٍ غيرِ محسوبةٍ مطلقاً بعضاً من التعاويذ علّها تنجده من هذه الصدمة:

- مرهون تعالَ وخذ ما شئتَ

تقترب إليه... يبتعد عنها متوجساً الصحة فيما يراه.

- من أنتِ؟ "أرجوكِ لا تؤذيني"

انهال الجسدُ/ الضوءُ ليتلبّسه فاراً ومهجتهُ التي اجتذبها بعيداً حيث ما اكترعتهُ دهاليزُ الليلِ ليرتمي وحكايتهُ التي بررها البعضُ على أنَّها ضربٌ من اللعنِ الذي خلفه ذلك البستان المشؤوم وجنيته المعروفة التي تبتهل ما بين حولٍ وآخر لتقفل رجولة من تتقصده وتمضي تاركة وراءها جباً من الأسئلة المتلاطمة التي تنسكب في جواب واحد لا يقبله الشك أو يدعيه الظن.

(2)

من يفضحُ سرَ الليلِ غيرُ حزمِ الضياءِ المعلنةِ، ومن أراد أنْ يُوصِدَ نفسهُ خِلسةً سيكشفه الظلُ بصراحة صارخة تكسر من دهشتها تلك الأفواهُ التي لا تجيد غير التبشير بتأويلات غائرة بالفضيحة، تناوشت حادثةَ الحمّالِ جميعُ الألسنِ الممتلئةِ باللغوِ، وأصبحت سلوةً مترعةً لكل من زفرته حاجته للحديث، بيد أنَّ ما اغتمّه من كل هذا هو ذلك الصراع المرّ الذي تفتق مع زوجته مرزوقة البنت التي قارب مجيئُها لظهور حفلات الغجر في المدينة والذين أرسوا أحداثاً ملؤها المرح واللهو في حينها.

فيما إذا ادعينا بأنها من الفاتنات اللواتي مارسهُنَّ اللّغط وقتئذ لتضفي صفة يقتفيها الرجال لسحرها المفرط، لمرزوقة أمٌّ تمتهنُ الدلالةَ في البيوت، وكانت ذاتُ سَعةٍ يسيرةٍ وعنجهيةٍ لا مُبَرِّر لها أورثتها لابنتها الوحيدة لكنَّها، توفيت قبيل زواجها بأيام قليلة، هذا ما أنذرها بسوء الطالع لما جنت من ارتباطها بالحمّال.

ما تقمصه الوقت والمكان جعلت الحمّال كارهاً للحياة ينظر الصباح متمرساً كعادته للخروج لثورة محتملة لتجابهه عثرات المدينة وأنظارها الساخرة:

- مرهون قلْ لنا كيف اغتصبتك الحوريةُ وسرقت حصانك؟.

ليبادرهم بالتجهم أو بإباحة الرد:

- قل لأمك كيف؟.

(3)

في تلك الفترةِ انكبَّ الحمّالُ على طرق أبواب السحرة والعرافين المزروعين بين جوانح المدينة والذين ابتهلت بهم آراءُ البسطاءِ طلباً للنجاة علّهم يجدون لهم منفذاً للخلاص مما أصابهم من كدر، فقد طُوِقَ جسدهُ بعددٍ من الأحجبةِ التي اجتهد أصحابها لما ألهمتهم حاجتهم للرزق، لكنها وبكل ما آثرت من غرابة بالطرح لم تحرك رجولته الساكنة فباتت جدواه شحيحة ومقدرته جامدة لينكمش عند زاوية من الدار مكتفياً بتلك التراشقات التي يسمعها على مدار اليوم من زوجته

وظلت مأساته تمارس الطواف بين أركان المنزل لا يُسمَعُ منه سوى الزعيق ومفردات اللوم والغث التي تزفرها عليه.

لم تتمتع مرزوقة بالقدر الكافي لما يؤهلها من استيعاب الجدل المفضوح عن تعرض زوجها من شرخ لهاجسهِ الذكوري إمعاناً لحادثة البستان المسكون، بل لم تسعفْها نيتُها بالنفور عن ذلك الصخب المخزي، لكنها وعلى الرُغمِ من ذلك كلهِ تُدرِكُ تماماً بأنه يخفق بافتراشها ليوقد شعلتَهُ الحمراء أو أن يبادِرَها بكلمات تُصَبِّرُ لها فورتَها الدائمةَ لترفع من شأنه عندما يجمعهما الليل بملاءة واحدة، توقف الحمّالُ عن رشف أحلامه محدثاً في ذلك حالة من الركود والخمول غير المفتعل "أواه من تلك الجنية الماجنة التي جعلت من صاحبنا رجلاً بلسانه فقط لا يحسن من إخماد النار المشتعلة لدى أنثاه"، انصرفت مرزوقة على الانفراد بآرائها وراحت تفصّلُ قراراتها بدون الاحتكام إلى أحد، لا صوت يشاطرها بالنزاع أبداً، أصبح الحمّالُ قطعة عطنة مطمورة برائحةِ الدخان وثلّةً من الأسئلة التي لا إجابة لها، منذ

ذلك الحين، أولت مرزوقة بنهم كبير على العمل حيث مهنة الدلالة التي أخذت من نشأتها الشيءَ الكثيرَ علّها تخفف وطأَة النزاعِ وحدّتَهُ وراحت تُحثُّ خطاها عند الأماكن البعيدة من البيع والشراء، كان الرجال يُسهمون النظرَ إليها بصورة ملؤها الأسى والحيف محفوفين بجملهم الناضحة بالرغبة والغريزة وهم يشاهدونها بجسدها المكتنز وقوامها النافر لاعنين الحمّالَ وحادثَتَهُ الشائكةَ، بيد أن مرزوقة نهمت بالاستمتاع بهذه الجُمَلِ التي تجعلها في هيام تام متمنية أنْ يدعك جسدها الناصع عددُ من الرجال الذين التهمهم جمالُها وسحرُها الملفت.

(4)

أثار الوضع الاقتصادي للمدينة طابع السخط والغضب الشديدين لدى سكانها حيث تزعمت مجموعةٌ من التجار المعروفين بمصائر أهلِها وراحوا يحتكرون مخازن المحصول ليطلقونها بأسعار باهظة الثمن، بيد أنَّ هذا الحال المجحف استاء له بعضٌ من الذين رفضوا الهوانةَ والخنوع في حين أن الأكثرية باتوا ممتثلين لهذا الذل

بمجـاراتهم ومهـادنتهم لـه كتبريـرٍ بـائس للحصـول علـى رغيف بخس وإنْ هبط بهم إلى الدَرَكِ الأسفل من الحياة. عندها تفشت حالةٌ من الفقر والبؤس الذي التهم المدينة ومـن عليهـا، وعلـى الـرغم مـن ذلـك كلِّه أصـرّت مرزوقـة علـى الإمسـاك بعملهـا الـذي لـم يمنعْهـا مـن الإطاحـة بالحمّـالِ عنـد كـل فسـحة مـن الوقـت، بـل لـم تهـدأ مـن فورتهـا التي أخـذت بتزايـدٍ ملحـوظ عنـد استماعها لسيلٍ من الجملِ الماجنة لتُعلِنَ استسلامها لرغبتها التي سولت لهـا أن تُمـارِسَ الفاحشـة تنكـيلاً بزوجها الـذي أكلـه العـار فيما لو افترضنا بأنَّها لـم تمارسْ نفسها قبل ذلك الحين، لكانت أكثر حذراً مما هي عليه، لكنها جاهدت بأن تقرع لـذتها لـيلاً لتلافـي الضـرر المحتمـل سـاعية بـأن يهصـرها رجلٌ لا يُسمع منه سوى أنفاسه اللاهثة بالشهوة المستعرة مطوقهـا بكلتـا يديـه لتأخـذهما رعشـة سـاخنة لا تتبـددُ إلا بانـدلاق الشـيء بالشـيء، وهكـذا عنـدما تعنِّفهـا حاجتهـا المهتاجـة يسـتوفيها أحـدٌ مـن هنـاك، افتضـحت فاحشـة مرزوقـة بـين النـاس مـن أحـد الصـبية الـذي أمهلتـه عينـاهُ بالنظر من إحدى النوافذ المطلة على بيتها وهو يبصرهم

بقلق لا ينقصه الخوف لمرات عديدة، دهشته أو ربما حركته غير المتزنة مكَّنت مرزوقة بأن يخامرها الشكُ برؤيته غير آبهةٍ بما سيحصل، في اليوم التالي عند مشاهدتها له أمعنت النظر إليه، ثم قالت بحنو:

- سعد كيف حالُك يا حبيبي؟ وكيف حال والدتك؟.

- ارتعدت ملامحه ثم أردفها قائلا: الحمد لله يا خالة.

- هلا تأتي معي إلى البيت لتأخذ قطع الحلوى لوالدتك؟.

تهادى معها بخُطُواتٍ واثقةٍ لتحكم غلق الباب ومكاشفته بتناغم لا مثيل له مع قِطَع الحلوى التي أوكلت لحديثها تياراً من الدفء:

- ما الذي شاهدته ليلة أمس أيها الشقي؟.

- لم أشاهد شيئا، بل كنت أرقب القطة التي أكلت فاختتي.

عندما تيقنت مرزوقة من مشاهدته لها، تباطأت كلماتُها مرفقة إحدى كفّيها لتمسح على جبينه الفضي الذي أخذ بالتعرق.

- أعلم يا سعد أنَّه سارقٌ محترفٌ أراد النيل مني، لا تقل لأحدٍ يا حبيبي، ومتى ما أردتَ الحلوى تعالَ ولا تخشَ المجيء... هل سمعت؟ والآن عليك الذهاب.
أوصدت مرزوقة ظنها باليقين وراحت تكيل الشتائم بصوت متواتر لتقاطعها أصوات النحيب والبكاء التي ملأت الشارع.

(5)

مات العمُّ إبراهيم، الرجل الذي أضاع حياتَهُ بالحمالةِ وترويج البضائع للتجار مقابلَ ثمنٍ بسيط لا يسدُ حاجةَ أولادهِ، أوكلت زوجته أمرها إلى الله بعدما أفرغت ما بحوزتها من النحيب الذي لم يفارقها أبداً، توالت حالات الهم والغم الذي طحن المدينة بيد أنَّ التيهَ الذي غيَّبها أبعد بعضاً من الأصوات المطالبة بحقها، لم يكن سعد متأثراً بكلمة السرّاق، بل لم يكن يُحسِنُ تدبيرَ نواياهُ جيداً، لكنه أظهرها عندما ارتفعت صيحات القهر التي أحاطت المدينة والتي ترددت على مسامعه كثيراً:

- أمي، مَن هم الذين تقصُدهم زوجة العمّ إبراهيم بالسرّاق؟.

- هؤلاء التجار الذين صادروا جهود أبنائنا.

- طيب: ألم تقولي يجب علينا ملاحقة السرّاق وتسليمهم إلى السلطة؟ أليس هذا الذي تعلمناه في المدرسة يا أمي؟... لماذا نراهم يجولون بيننا بكامل حريتهم؟.

- بالطبع لكن... لكن... لكنهم يسرقون بقانون.

- وكيف السرقة بقانون؟.

- أووووو، اذهب فقد صدَّعتني.

نظر سعد إلى أمهِ ملياً متذكراً ما قالته مرزوقة، ثم راح يهرول إلى الشارع مطيلاً النظر إلى نساء المدينة، بل حتى رجالاتها مسترجعاً ما شاهده في تلك الليلة، ليُبصِرَ كمَّ السرّاق الذين ملؤا المكان، خيّلَ له الرجلُ الذي دثر مرزوقة بجسده وهو يرقبه يتهادى ببرود ملفت، ضحك كثيراً ليدلفَ إلى حجرته، ثمةَ قطعٌ من الحلوى علها تكفي لرؤية مرزوقة مع سارق آخر أو لرؤيتنا مع زعيمٍ آخر يناور أجسادنا على طاولة القانون.

الغُرفةَ[1]

على هامشِ نزعاتهِ المتواصلةِ التي أنهكت مخيلتَه جزعاً، كان لا بد له أنْ يتوقف عند نقطة معينة ليبدأ مشواره، فيما إذا أتحف غايتَه بجبٍّ من التكهنات المالحة أطلق تنهيدةً محشوةً بالضجر ليمضي وفورتُه المعتادة: لا سر في الكون، يضحك كثيراً ليدخن أكثر ويسرح إلى حيث ما اقتادهُ هذيانُه، وكان إذا ما أصابتْه لوثةُ الشكِّ أحدَّ بصَرَهُ الحالمَ نحو زاوية ما ليوقد في سره لحظة اليقين، لكنْ سرعانَ ما تتعرى حاجته لدفقٍ من الأسئلة الشقية ليخبو وتخبو معه ارتساماته المنغمسةُ بالذهول، ليكشِفَ عن هاجسه ويُفصحَ عن رؤيته بصراحة باذخة: "ما الداعي لأنْ أصفع وجه الغرفةِ بالبابِ إنْ كان العالمُ لا يتقي

(١) نشرت في صحيفة الصباح العراقية بتاريخ السبت المصادف ٢٠١٧/١٠/٢٨ العدد ٤٠٩٠.

خفاياه" معيداً لنفسه ثقةً لا بأس بها متيقناً من خلالها قدرتَه على أنْ يكشف ذاتَه بذاتهِ.

اعتاد (رؤوف) وهو الولدُ المثابرُ المهتمُ بالرسم وطيفِ الألوانِ جاعلاً منها ملاذَه الوحيدَ وانشغاله الدائمَ للفرار من كمّ الزعيقِ الذي يُمارَسُ خارجاً منصهراً في ملكوته اليوميّ لينفُثَ ما في ظنّه علّه يتقي ماهيةَ العدمِ المدخرةُ لديه، غرفته الصغيرة المحشورةُ في خاصرة البيت أشبه بوطن كبيرٍ يحوي بعثرتَه وأفكارَه الكثيرةَ، كذلك لوحاتهُ المرصوفةُ الواحدةَ تلو الأخرى على الجانب المحاذي لمكتبة عجوز، تتسع لأغلب الكتب التي تعنى بالتشكيل وبعضٍ من الكتب الثقافية، بقعُ هنا وخربشاتُ هناك، ومِصطبةُ تنتصف المكانَ يقابلُها كرسيٌّ متحركٌ بلا رقبةٍ هو الآخُر أخذ مأخذَه من التماهي اللوني، رائحةُ الألوانِ المحشوةِ بها أركانُ الغرفةِ تُعطي تبريراً وافياً لِكمّ اللوحات التي انهمك في رسمها، ليرزُمَها جانباً مدخراً هوايتَه ليومٍ آخرَ فيما إذا أنحبس فضاؤه عن الرسم أشعل في خاطره احتجاجاً منافياً للمحو الذي تقمَّصه ليلحق بهذه الدوامةِ المستعرةِ

بالتخمينات ساعياً من خلالها إيجادَ منفذٍ للصراع الدائرِ بين الإنسان وثباتِه على الوجود، خروجُه من غرفتِه/عالمُه كان بمثابةِ طرحٍ لا يختلف عن رؤاه هامّاً بأنْ يقتنص مادتَه الدسمةَ من هذا الفجاجِ الفسيحة، يُمعن النظرَ كثيراً بمن حوله، النخلةُ مثلاً، نعم النخلةُ التي اعتزمتْ الأرضَ للوقوف باستقامة لا مثيل لها، العصافيرُ التي توزعتْ بصورةٍ مبعثرةٍ وهي المنطلقةُ للريحِ بلا هوادةٍ لكنَّها وعلى الرُغمِ من كلِّ هذه المساحةِ السخيّةِ من الحرية احتفظت لنفسِها قلقاً مهولاً، وجوهُ الناسِ المسكونةُ بالهلعِ والذين اغتمّوا به بسبب أو من دونه، يتخللُ تلك الطرقاتِ على هوادةٍ من أمره محفوفاً بكمِّ التقلبات التي تمرَّغَ بها ليرتكنَ وعلاماتُ الحَيرةِ التي اختصتْه ملياً وهو الشاردُ بسؤاله الدائمِ "هلِ الإنسانُ موجودٌ بمآثره أم بكيانه، وإنْ كان كذلك، إذن ما الفرق بين (سلفادور دالي) والشجرة التي اقتلعها منظفو البلدية؟، ما الجدوى من كل هذا الغثيانِ المستمرّ؟ وأيّةُ رهينةٍ نحن؟ بيد أنَّ ما يجعلُه ينعمُ بالحياة هي تلك السكينةُ التي يجدُها في مشغله، ليبدأ عندها فصلاً من التعب اللذيذِ الذي لطالما أدمنَ عليه منذُ

سنين، من الغريب أنَّ (رؤوف) عندما يباشرُ ببثِّ التفاصيل لرسوماتِه المتكررةِ، كان يصابُ بحالةٍ من العجزِ بأدواتِه عند تجسيدِ ملامحِ الوجهِ، لينحسرَ وبصيرتُه للنفادِ من هذه المحنةِ، مستعيراً بدلَها ملامحَ وجهِه ليبذُرَها، وكما الحالُ عند كلِّ لوحةٍ ارتحلتْ أناملُه إليها، غيرَ أنَّه لا يأبهُ كثيراً بمثلِ هذه المسألةِ قصداً أو من دونه، ساعياً بأنْ يلتزمَ الحذرَ من هذه العَقبةِ في المرات القادمة.

يحدث أنَّ في ساعة متأخرة من الليل، وبينما كان سكونُ اليومِ يعلنُ عن نفسه بسمائه الصافية التزمَ (رؤوف) مِصطبتَه وراح يحلِّق بعيداً ليمارسَ طقسَه الكونيَّ حاول أنْ يرسمَ شخصاً ببذلته الجميلةِ وقوامِهِ الرشيقِ غيرَ أنَّ فرشاتِه توقفتْ عندَ ملامحِ ذلك الشخصِ، تأمّلَ قليلاً علّه يلتمسُ قدرتَه على الرسم مسترجعاً أغلبَ البروتريهات التي رسمها، لكنَّه تفاجأ من أنَّها بِلا ملامحَ أيضاً، غيّر وجهتَه نحْوَ ما اقتربَ من بصرِهِ، وجد الأشياءَ جميعَها غارقةً بالتيه، ماذا يعني أنْ تحيا بالفراغ وتمارسَ نفسَك في الظلِّ، صرخ بصوتٍ أشبهَ بالزعيق "نحنُ المنغرسون بالعدمِ متى تتضحُ هوُيّتُنا"، تمادى من مكانِه

محاولاً فتح البابِ غيرَ أنَّها اختفتْ واختفى معها هاجسُه للخروج، أين البابُ؟ قالها وهو يمتثل لخُطُواتِه المتريثةِ، والماحول اختصتْه العتمةُ وبدا كأنَّه الفناءُ، أعانَ نفسَه على الوقوف محاولاً الفتكَ من حدود المكان، لكنْ كيف، يا لهذه الألواحِ الغريبةِ التي أنهكتْ قواي، التزم كرسيَّه ليدنوَ من هيكلِ النافذةِ الذي بانَ هو الطريقُ الأوفرُ حظاً للفوز من هذا الرعبِ، ليطمْئِنَ نفسَه بُرهةً، أو مدعياً كذلك، ملتفتاً إلى حيث مكان البابِ، ليبتهجَ في سرّه وراح يحملقُ بما وصلته عيناهُ الذاويتان.

لنعد إلى الباب

أمال بعودهِ حين رأى قدحاً من الشاي، موضوعاً على الرفِّ المواتي لمكانِ جلوسهِ، تناوله على عجالة من أمره بصورة لا يعرف كُنهَها بالضبط، تفحصَه جيداً بمحتواه البارِدِ تذكّر اكتراثَه في عمله ليلةَ البارحةِ مما جعله يتركُ قدحَه للنسيانِ، استعاد ذاكرتَه ليومِ أمسِ وما حصل له أثناءَ تواجدِه في أحد الأماكنِ العامةِ التي كان يقطنُها الكثيرُ من الناس، ارتاب من رؤيتِه لهم بملامحَ باهتةٍ ومشوشة، هكذا بدا له المشهدُ للوهلةِ الأولى، وحتى

الأمكنةُ والدرابينُ، واجهاتُ البيوتِ، الطرقُ التي تَكادُ مسافاتُها حانيةً، الشيءُ المحيّرُ من كلِّ هذا، هي اللامبالاةُ التي أودعتْ له من قبلهم، انجابتْ قدماه إلى حيث ما اعتزم مسارُه للمشي محاولاً أنْ يعرفَ اللغَز الذي تقصّدَهُ، أصرّ على أنْ يتابعَ خُطُواتِه غير أنَّه تثاقل في سيره، تبادرَ إلى ذهنه وكأنَّه في غرفة صغيرة محكمة الإغلاق، ما من فسحة إلا وضاقت به وقوبلت بالرفض، ماذا بعدَ هذا الكونُ المغلقِ؟ وكيف نصل إلى عتبة النهاية؟ وأين بابُ الخروجِ؟، لملم ارتباكَه للرجوعِ إلى بيته حيث العزلةُ التي اتخذها، لكنَّه أيقن أنَّ خطأً ما قد التهمه، فكّر أنْ يراجعَ نفسَه في أغلب اللوحات التي رسمها لكنه كان تعباً جداً، في اليوم التالي وعندما أمعنَ النظرَ فيما رسمه من قبل سنوات عدةٍ وجدها بنفس الضبابيةِ التي أحاطته، استنفر في سرّه كثيراً ليلتفتَ والجنونُ الذي أكلَه إلى النافذة مصحوباً بصوتِه الحافزِ "أين ملامحُك أيُّها الكونُ المعدمُ" مبادراً بتفحّصِ ملامحه بكفيْه المرتعشتين.

صراخ متئد[1]

ريثما تبدّد النهارُ، راحت أقبيةُ وممراتُ الحيّ تفهرس ما اتسعت من تنهدات أبنائها الذين امتزجت ملامحهم بأنين بيوتاتها الكهلة، ثمة حاجةٌ غريبةٌ تدفعني لأتفحص ارتساماتِنا المستعارةَ من انكسارات تلك الأمكنة، الدرابينُ الضيقةُ تشبهُ إلى حدٍّ ما أحلامَنا البسيطةَ، مذكراتنا التي ما انفكت عنها الجدرانُ المتهرئةُ الشبيهةُ بالسجنِ، الصبية الذين يمرحون وجعاً ليقذفوا لعبهم عند عتبة الحيّ، حسرات أمهاتنا المكللات بأضرحةٍ وشواهدَ من هموم جميعها اختلاجاتٌ مرعبةٌ باتت تلكز ما تيسر من أحلامنا الغائرة بترهاتٍ لا عدَّ لها، الحياة متاهاتٌ مرصعةٌ بأسئلة

---

(١) نشرت في مجلة الأديب العراقي التي تصدر عن الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق ضمن ملفة خاصة عن القصة العراقية سنة ٢٠١٦... النص الفائز في مسابقة جريدة دليل النجف للقصة القصيرة.

شاخصة تسري على هوادةٍ من أمرها تستوقفها استفهاماتٌ ممضةٌ ما برحت أَنْ تبسمل جراحاتِنا معنىً وبوحاً لتأرشف في ذاكرة التمرد دموعاً وأغاني مشاكسة... "الحياةُ سجنٌ كبير كبير" -يصيح بألم موجع- : "نحن نشيخ وأوجاعنا فتية"... أواااااه، لكم اتضعت مخيلتي من ذاكرة المكان وشخوصها المتشبثين بظلالهم عوناً على معاسر الحياة، لكم ادخرت ذاكرتي الفتية وأنا أرصد مغامراتِ مجنون الحيّ الذي بات حكيماً بأحلام الآخرين وانثيالاتهم التي أضحت سبيلاً إلى معرفة الحق مهما ارتفع عباب الباطل وهاجت موجاتُهُ... نعم أتذكره جيداً رجلاً مأخوذاً بقامته الفارعة ليكاد أن ينوء له الليل ظلاً... لا نرقبه من أين يخرج، فعندما يكفّن النور خطايانا يبزغ صوته الذي تبدو عليه سمة التأنيب لينتعل الأرض بخُطُواتِه المتئدة متكئاً على قدمه الثالثة التي انخرطت مع أطرافه السفلى عوناً، ليمهر صوته المبثوث بفضاء من حوله ويشاكسهم على طول النهار، ربما من أراد الغوص في دهاليز هذا الرجلِ لِما يَدَّخرُه من عبءٍ وألمٍ يستطيع أنْ يصل إلى غايته المرجوَّةِ بعيداً عن ممارسة التقصي

لمعرفة ما يجول بداخله، لنتسمّر نحوه قليلاً، ثم ما نلبثُ أنْ نتعافى بذكر الله... الشيخ الهرم أو (الحاج جلال)، هكذا يسميه أبناء المكان، كان والدي يوبخني عندما أنعته بالمجنون ليكفر عما يسمعه مني داعياً المولى بالمغفرة ورجاحة العقل، على الرغم من أنَّه لم تظهر عليه أيةُ صفة تبشر بذلك، فهو الخير والبركة، كما تسميه نسوة الحي - أي خيرٍ وأيةُ بركة يمنحها رجلٌ يدثر جوعه بخريطة جسده التي أضحت مكشوفةَ المحاذير- اللواتي يَستَبشِرْنَ خيراً بطلّته اليومية وتجواله بالمحلة غير أنَّهم كانوا يستبدلون ارتباكاتِهم بأقنعة تمنحهم الخشوع عندما يستحوذ صوته على فضاء المكان، وكأنَّه يوم المحشر... "الحياة سجن كبير كبير" يصيح...: "نحن نشيخ وأوجاعنا فتية"... ولم أعرف كنهَ تلك الجمل في وقتها، وعلام يبدون مظاهر الريبةِ والحذرِ؟ علَّهُ منبهٌ لذكر الرَّب؟ أم أنَّه داعٍ لاتقاء الخطأ؟ وهل نحن أدمنا أخطاءنا لهذا الحد؟... نبصر نجوم الله مقلاً ليغفو المكان مع أنينه الحافز ويذوب الشيخ.

لـم أكـن ذلـك الصـغير الـذي يتناولونـه بلعـب النـايلون وحلوى فاقدة الصلاحية يبتاعونها في آخر الشارع.

كـان ذكـائي الحـاد وفطنتـي الكبيـرة تجعلُنـي أحظـى بتوجيهـاتٍ علـى مـدار اليـوم، بـل إنَّ والـدي كـان يتجنـب مسايرتي معه إلى دكان الأعشاب الذي ورثه عن جدي الحاج محمد -والذي أصبح علامةً فارقةً لمن غشيت عليه مسالك المكان- كي لا أوقعه في مطبات مع زبائنه الذين ينمّون خزعبلات تمنيهم بالجدوى وصفاء السريرة، لكنَّ الواقع يرغمه أنْ اذهب معه ذلك لأنّي الابن الأكبر على بناتٍ أربع، فلا حول ولا قوة إلا بالله، كثيراً ما كنت امـتعض عنـد سـماعه يتـأوه مـن تصـرفاتي التـي ينعتهـا بالحمقاء حالَما ألسعُهُ بأسئلةٍ تبدو واضحة بعض الشيء بالنسبة لـه ليتفحصـني بنظراتـه السـاهمة باديـة عليـه صـفة الغضب التي تجعله يتلقف محفظته العريضة مبادراً بلفِّ سيجارةٍ من التبغ ليرضَّها بين شفتيه غير المتزنتين ليبدأ بنصائحه المحفوفة بالحدة والتي توصلنا في أحايين كثيرة إلـى عتبـة الـدار، أبنـاء المكـان أعـرفهم جيـداً، حكايـاتهم، وجـوههم المتخمـة بخطـوطٍ متعرجـةٍ مضـمونها الألـم،

أصـواتهم التـي لا تصـل، ممـن يخشـون، أحفظهـم جـداً حيث لا جديد في هذه الأَمكنة إلا زيادة المحن، كانت همـومهم واحـدة ومصـائرهم واحـدة وأحلامهـم واحـده أيضاً، يا لله كم يزعجني ذلك المجنون الذي يجبرنا على الأصغاء إليه لمرات عدة.

لطالما اصطحبت واجباتي المدرسية إلى مكان عملي متحيناً الفرصة لإكمالها، على الرغم من تخمة العمل ودقته الهائلة محاولا مصارحة والدي بعدم المجيء أو الإقلال منه، لكنَّه كان يستشرف ما بحوزتي من ضجر ليُقنعِني بأمور تجعلُنِي أمام واقع لا مفرَّ منه أبداً ومما لاشك فيه إنَّ البدء بتحضير وصفة الأعشاب تتطلب دقة كبيرة من ناحية كمية المادة المضافة، وعن استيفاء الوقت اللازم لتصبح جاهزة للزبائن الذين أخذ عددهم بتزايدٍ ملحوظ مما أبطل فكرة مفاتحتي له بشأن العمل ومتاعبه التي لا تنتهي.

كان شعوري وأنا ابن الخامسة عشرة لا يوصف، فما بين عملي الشاق والممل ودعاء والدتي اليومي أنْ أصبح معلماً يشار له بالبَنان، تقابلها صيحات والدي النافذة

لإكمال ما عليّ من مهام. آه... لكم آثرت والدتي ألاّ أتماهل في تعليمي عندما كانت تسمعني أحترق من جراء ما أتلقاه من العمل، لطالما كانت تجعلني أحتضن الأفق مبتهجاً لتبدأ بتهذيب اليوم من المصاعب داعيةً المولى أن يمنَّ عليّ بمواصلة دراستي لأصبح معلماً كـ وليد أو الأستاذ وليد، أوووه لقد شكل لي عقدة ذلك الشاب الوسيم ذو القوام الممشوق والملابس الأنيقة، فقد أصبح مثالاً يحتذى به على مدار اليوم من قبل والدتي التي ترى فيه شاباً جديراً بالاقتداء لاسيما وأنَّ هذا رأيي أيضاً، كانت عائلة وليد تَحظى باحترام هائل من قبل أبناء الحي فقد كانت عائلته من المقربين إلينا مما جعل علاقتَنا تتزايد يوماً بعد يوم تفانياً ومحبة هذا ما دفعني أنْ أبدي له كامل الاحترام عند مشاهدتهِ مواظباً للذهاب إلى المدرسة ليبادلني التحية باحترام ونهم شديدين، لم يكن وليد كثير الاحتكاك بمن حوله ربما لم يكن يعرف عما يدور، على حسب اعتقادي بسبب قلة تواصله مع أبناء المحلة الذين يبدون له كل التقدير فعندما ينتهي من عمله الصباحي يخرج عصراً من فوّهةِ الزقاق رابضاً بيده كتاب

-على أقل تقدير- مترجلاً بخطواته الواثقة مشرعاً بابتسامة بسيطة ما لبث أنْ يهمَّ بالسلام على من يراه، وهكذا دواليك. على الرغم من تواصل العمل وانشغالي الدائم، لكني آثرت بترقبٍ ملفت موعد مجيء الأستاذ وليد من أقصى الزقاق محاولاً النيل من وقته ولو لبضع دقائق غير أنَّ خجلي المبرر تمكن مني فمنعني من الحديث معه، بماذا يفكرُ يا ترى؟ لماذا لا يشاركنا الهموم؟ ما هذه الكتب التي بحوزته؟، كنت في أوقاتٍ كثيرةٍ أحاول أن أتخلص من كمّ الأفكار التي أنهكتني ملتجئاً إلى عملي ودراستي لعلها تخفف ما أحمله من ذلك الصراع المرّ بيني وبين والدي، لكنَّ الأسئلة كثيرة وتداعيات مجنون الحي التي أخذت تنخر في عقلي كثيرةً جداً مما جعل يومي تقليدياً غير محبب بل إنَّ سؤالي الجوهري ما هو الجديد الذي أريده؟ هل أن اختراق المألوف هو الجديد؟ أم التنقيب عن شؤون الآخرين ومزاولة التلصص عليهم هو الآخر الجديد؟ يا لله أخذ الصداع في رأسي مأخذه لينادي والدي بصوته الجهوري للمجيء.

الصباحات تبدو مغلقة لأبناء المكان أو ربما لي، على أقل تقدير، ومجنون الحي الذي أخذت جمله بالصراخ لأشاهد الأستاذ وليد مرحّباً كعادته للذهاب إلى المدرسة مبادراً بالسؤال عن دراستي وعن أوضاع العائلة، رابتاً على ظهري مشجعاً بالمواظبة على الدراسة بأسلوبه المهذب علّه أيقن ما بداخلي من التباسات راحت توصد المدى بوابل من القلق لتزايلني حالة الخجل التي تقمصتني متماهياً معه بالمسير :

- أستاذ وليد لكم تمنيتُ أنْ أسالك عن هذه الكتب التي تحملها معك كلما مررتَ من جانب الدكان.

- نعم... إنّها كتبٌ ثقافيةٌ.

- عمن تتحدث؟.

- عن كل شيء... عن الحقيقة وعن معرفة الذات.

- حقيقة من؟.

- حقيقة ما نحن به الآن.

تسمرت قليلاً محاولاً انتزاعَ كلامٍ أقلُ وطأةً، ليبادَلني الحديث.

- يا حبيبي أن القراءة تجعلك قريباً من لحظة الدراية منتفضاً لها بعيداً عن العاطفة التي تسيّرك كالدمية... أي أنْ تسمّي الأشياء بمسمياتها بلا إضافات مزيفة.

- نعم... نعم أستاذ.

لنسكتَ بُرهةً إذ ما بين الفينة والأخرى يُقطَع حديثُنا بوجوب السلام.

- ألاحظك في أحايين كثيرة تتفحص بيوتات المكان بصورة ملفتة.

- نعم هذا صحيح أنت شديد الانتباه لي "يقولها بابتسامة عابرة".

- نعم أستاذ هذا من شدة إعجابي بك.

- كنت أنقّبُ عن صور احتفظ بها في ذاكرتي عندما كنا نمرح في هذهِ الأزقة والتي كانت في حينِها فتيةٍ بشَكلٍ لا يصدق كانت تَسعدُ بمرحنا ولهونا لتبدو عليها حالة البهجة والضياء، لكنها الآن ومع شديد الأسف أكلتها الشيخوخةُ كحال أبنائها.

- نعم هذا صحيح.

- المكان يا حبيبي بما يحمله من حيفٍ هاجسٌ أبديٌ يتقمص كينونتَنا مهما حاولنا الفرار عنه أو الإبحارَ بدونِهِ، ليداخِلَنا مجنون الحي بصيحاته المتقدة: الحياة سجن كبير... نحن نشيخ وأوجاعنا فتية.

- أنظر يا حبيبي، أحسب هذا الشيخ من أبجديات المكان

- نعم أستاذ... أُلاحظه يخرج بهذه الجمل، لكنَّه غيرُ مكترثٍ لمن حولهُ.

- هذا صحيح لأنَّ الآخرين أكثرُ اكتراثاً له... قالها "بصورة حالمة وغريبة".

- ألاحظ أنَّ سِمَةَ الخشوع أو تذكُرَ شيءٍ قد نسي، ألاحظ الناس بارتباكاتٍ لا مثيل لها، ماذا كان يقصد بهذه الجُمل؟ وعمَّن يتحدث؟ أحسست أَنّي قد التهمته بهذه الأسئلة، أو ربما أصبحتُ أكثر وعياً وتفهماً للحديث من خلال هذه الاختلاجات.

- ألا تعتقد أننا بحاجة إلى من يكاشِفَنا.

- يكاشفنا عن أيّ شيءٍ.

- عن أخطائِنا... ألم أقل لك أنَّنا نبحث عن الحقيقة.

- لكن لماذا كل هذا القلق من هذا الشيخ.

- لأنَّها الحقيقة: ربما نحتاج إلى من يحاسبنا ويذكرنا بمصائرنا الموجعة ونحن على قيد الواقع.

- وما دور الله، سبحانه وتعالى، ألم يضع لنا دستوراً؟.

- وهل رأيت الله؟.

- بالطبع لا، وهل نحتاجه كي يُرى؟.

تفحصني بنظرة ساهمة وقال... اذهب يا حبيبي فإنَّ موعد الدرس الأول شارف على البدء.

ما لا يدركه الحلم[1]

لم تحتفظ ذاكرتي بكمّ الأحلامِ التي تحققتْ أو التي انحدرت صوبَ ما هو مستحيلٌ إمعاناً لغرابةِ الأفكارِ التي تتمادى في طرحِها غايةٌ لا يدرِكها إلاّ الضحكُ المبررُ أو التصبّرُ بكلماتٍ محفوفةٍ بالرضا أو النهيّ عما يرفُضُه العقلُ لترتحلَ بعيداً عند مؤانسة طيبة لا تأخذ من الليلِ سوى حكاياتها المعبّأة بالذهولِ، ما الداعي لأن ألهوَ بالقمر كرة أو أنْ أمتهرَ حماراً لأطيرَ به إلى السماء.

كيف ليْ أنْ أمارسَ الظلَّ بوصفه ملاذاً آمناً لاقتراح الحياة فيما إذا ادعينا بأن الأحلامَ هي ظلالٌ شرهةٌ لأحداثٍ تتسعُ للمشاكسة، في العاشرةِ من العمرِ كنتُ مغرماً بركوبِ الدراجةِ الهوائيةِ التي حلمتُ بها على مدى السنتينِ الفائتتينِ والتي وجدتُ من نجاحي مبرراً

---

(١) نشرت في صحيفة المدى العراقية بتاريخ الاثنين ٢٠١٦/١٠/٢٤ العدد ٣٧٦٥.

لاقتنائها، الدراجةُ كانتْ هي الحلمُ الأولُ الذي تحققَ على يدِ والدي رحمه الله.

في الخامسةِ عشرةَ حلمتُ أنْ أقبّلَ (ميّادة) البنتَ المدللةَ النافرةَ بالأملِ والتي اختزلتُ بلذتها مرحاً يفضي له الخلقُ معاناةً أمدَها التفكرُ بما تجنبنا الصراحةَ بالقول: "أواه لا أحدثكُم عن ميادة سأحتفظُ بهوائي لنفسي"، القبلةُ التي أودعتُها كانتْ بمثابةِ مضاجعةٍ مسوّرةٍ بالخيالِ ادخرتُها حرزاً لممارسة رجولتي السرية.

في التاسعةِ عشرةَ حلمتُ أن أقرأ (سارتر) وفلسفتَه المبهمةَ لم يسعفْني الحظُّ في تلك الفترةِ؛ لضراوةِ ما يحملُه (سارتر) على المؤسسةِ العسكريةِ لا الثقافيةِ فحسب، لكنْ الذي حصلَ هو مكاشفَتي من أحدِ الجنودِ الذي مارستهم الحربُ كفائضٍ عن الحاجةِ، قال لي بالحرف الواحد إنْ لم تُؤبنّا الحروبُ -وهذا واقعٌ حتميٌّ لا مفرَ منه- فسنغتمُّ بحياةٍ موصدةٍ علينا التفرّدُ بميتةٍ باذخة المعنى، مناوراً بكفهِ الأيسرِ المتأبط بالكتاب رنينَ كلامهِ الموجزِ، موتٌ يطاوعُه القصدُ بغيةَ الوصولِ إلى

الدرايةِ الكونيةِ، علينا أن نختارَ نهايةً تَليقُ بنا نحن الفقراء، استشهد صديقي وبقي (سارتر) يناقشُ وجودياتهِ الشائكةِ.

في التاسعة والعشرين تغيّر من تغيّر كذلك أحلامي التي لعقتها الفاقةُ كدلالة على تكالبِ الهمومِ التي أودعتْ ملامحَنا للذبولِ، قديماً وفي سطوةِ حكاياتِنا التي تؤرخها النادبات قيل: "إنْ أردت التجلي في المنام ما عليك إلاّ أنْ تنسلَّ بمخيلتك طوعاً، ستسرحُ عند أيَّةِ أمنيةٍ وافدة، ومن ثَمَّ ستنعمُ بنومةٍ هانئةٍ شريطةَ أن تتركَ قدميكَ الهائمتينِ مكشوفتين للهواء. ستنفثُ حلماً وقتُه بسعةِ اللقطةِ التي اجتذبتك أو يتسع فضاؤها بالقليل، لكنه سيبخلُ في إطالتهِ بل سيترك من أحداثهِ مختصرات لا تبالغُ في تفسيرها للوصول إلى لحظة اليقين".

استعنتُ بهذا الموروثِ الذي ساورني في حينها بيد أنّ تنفيذَه بات صعباً جداً، فيما إذا تمرَّغتُ بلحظةٍ هلاميةٍ أخذتني الجلبَةُ والتهليلُ بأنّي سأحصدها حلماً، أطلت النظرَ إلى شجرةِ البلوطِ التي لم تزايلْني صورتها عند مشاهدتي لها في أحد الأفلام الأجنبية والتي أثرتها

بفروعها الدانية، وكذلك الحال إلى صور تترى تمخَّضت إلى أحلامٍ أرشفت لذلك المخيال العليل تأملاته الكثيرة.

لا يفوتني الذكرُ أنّه بعد كلِّ ليلة استودعها تأخذُ زوجتي المسكينةُ على عاتقها توثيق الحدث المزعوم بصورة عفوية.

أُمنّي النفس مدَّخراً الصورَ التي أبصرها لتحكي ما تلاحظُه من إيماءاتٍ يظهرها الوجه مصحوبة بهِناتٍ تلوّح بأصوات يفتقدها التفسير لتنتهي إلى تخمينات مليئة بالضبابية "الحياة، الأمل، النخلة، الطيور، الوطن"، الوطن، الوطن، إلاّ أنَّها... وذات ليلةٍ منزوعةِ الضياءِ وعندما كنّا نتجاذبُ أطرافَ الحديثِ أخبرتني بانّي كنت يقظاً طوالَ المساءاتِ التي مضتْ ليس ثمة أحلامُ تدَّعيها غير ما قُضي مع الوقت، قاطعتها بحدة مستدركاً الصور التي التقطتها.

استمرتِ الحالةُ بصورةٍ يوميةٍ على الرغمِ من أنَّني كنتُ على يقينٍ مما أدّعيه، يا الله ما الذي حصل ليْ، الشكُ الذي التحقتُ به، زوجتي التي كاشفتني بصراحتِها الباردةِ، تسمَّرتُ قليلاً نحو أفقٍ يحمل ملامحَ خيباتِنا

الممضـةِ، هـل أنَّ مـا أتمنـاهُ لـيس ذا سـعةٍ مـن مسـاحةِ الحلـمِ؟، هـل أنَّ أحلامَنـا شاسـعةٌ إلـى درجـةِ الـرفضِ؟، سأترككُم لهمِكم وأنفذَ بنفسي عن تلك القيامةِ المبثوثةِ في نشرةِ الأخبارِ والتي أترعتني وجعاً، لكم تمنيتُ من الواقعِ الذي نعيشه أن يستحيلَ إلى كابوسٍ نصحو على مغادرتـه -ولـو بعـد حـين- عنـد ذلـك الـوهج الجميـل المسمّى الحياة... أرجوكم إملأوني بالصور الجميلة لكن لا تدعوني للنوم، إلى متى ونحن نلوذُ بأحلامِنا الواهمةِ ونتركُ يقظتَنا راكسةً بالتيه.

صرير الأمكنة[1]

قيل ما قيل: إن فتاةً من الضوءِ ألبستِ القريةَ عباءةً من الخوف، فتلعثمَ الناسُ بالموت، مدركين أنَّ ما فسره هاجسُ الظنِّ وهو المبحرُ فيما استودعهُ الإثمُ بالكمال، من أنَّ روحاً انفرجت عن محبسِها وراحت تجوس المكانَ عند كل ليلةٍ؛ لتؤنبَ السكوتَ بهذيانٍ نحسبُه عناداً للقول "خرافة هديدة" جاعلةً من المكانِ ملاذاً للرعب أو محطةً من الوهم...

أحسَبُه الليلَ، كان الصباحُ إذا ما حلَّ أشعل الكونَ برمته حيث الشمسُ المنفرجةُ بضيائها اللاهث، وكان إذا ما لاحَ بالقريةِ شوطٌ من الرعب، كفّنوه بحكايةٍ مدللةٍ، تُدرِكُ أنَّ للموت موعداً، يأبى الزوالَ على أنْ ينفروا من ذلك الأنينِ، الذي أنهكهم كلّما اقتربوا من جادةِ النهرِ،

---

(١) نشرت في صحيفة الصباح العراقية بتاريخ الثلاثاء ٢٠١٦/١٠/١٨ العدد ٣٧٩٧.

ليس ثمّةَ سرٌّ في تنهيدة النهر، الذي اجتذب بسوأته روحاً، وظلت معلقةً تمور بكلمات يُبصرها البعضُ على أنَّها ضربٌ من الخيال، بل إنّها حقيقةٌ واضحةٌ لا يُبطلها الصفحُ عما هو مُكتَنَزٌ بالفناء، ما كان للنهر أنْ يلعق بلسانه ذلك الجسدَ /الوهجَ إلاّ وانكفأت تأويلاتٌ راحت تذهبُ بالذهنِ إلى غايةٍ عسيرةٍ على الفهم، هذا ما اعتزمته الجَدةُ وهي تروي بانثيالاتها سِفراً محكماً من اللغو ادخرتهُ لأحفادها كتعويذة لا تشيخ: للواتي يخرجْنَ مع الصباح يعرفْنَ بوقع أقدامِهنَّ الملطخة بالحِنّاء ارتباكَ الأرضِ الطرية التي تبشرُ بالنهر، نفانيفهُنَّ الطويلةُ الملونةُ بالريف وأهازيجِ القمحِ تَستُرُ مما اختزلتْه ربّةُ الجمالِ دهراً محملاً بالشبق المجنون، يخرجْنَ متلفِعاتِ النيةِ ليُدركنَ النهرَ بوفرته المعهودة يتقرفصْنَ على عتبته المتعرجة بعدما يطوين الصيفَ بين أفخاذهن، ليبدأ فصلٌ من الجهد بتنظيف الأواني وغسل الملابس ومن ثَمَّ يغمسنَ أوعيتَهُنَّ بقليلٍ من الماء ليعتزمْنَ الرَواح، وكما هي الحالُ عند كلِ يوم، تناهت إلى الجدة ارتباكاتٌ ألهمها ذلك الخيط المضفورُ ما بين الذاكرة والواقع

المريرِ لتنقضَّ على كيس التبغ الذي أودعها اللوعةَ فتأخذ بصقل سيجارة من ورق البافرة وزجّها بين شفتيها القائظتينِ وتمضي بالحديث بتوئدة غريبة على عكس ما تنفثه من دخانٍ ممض، وبعدُ... ولمّا أذِن للضحى أن يكشفَ عن ملامحه بالتوهج وعند التماهي بالأرض المنغمِسة بالماء والطين اهتاج النهر ملتحفاً (هديدة أبنة عواد المرزوق) ليدرِكَها بغرابة محكمة لا تأخذ من فهرسة الوقت ميعاداً يدخر، سادَ صمتٌ أحمق لتنفرج الصدمةُ بصراخ وعويل أحاط الفتياتِ اللواتي آثرن التسربلَ بالنهر لإنقاذها لكنْ ما من فائدة، اكتظَّ النهرُ برجالِ القريةِ، حاولوا إماطةَ لثامِ الماءِ بتنقيبِهم عنها، لكنَّ الجدوى باتتْ قاصرةً، أين ذهبتَ بهديدة أيّها النهرُ؟ هذا السؤال الذي جعلني ذاهلاً لما قالتْه الجدةُ وهي ترمي بأسلوبها الأخاذِ مداخلَ اللفظِ مموهةً بكفها الأيمنِ الذي اتسعتْه أصابعُها الخمسةُ موشوماً عليه رموزاً مقفلة، اختطتْها والدتُها عندما تناولتْها أحلامُ الخصبِ كحرزٍ يُبطل مما اقترفتْه النوايا السيئةُ أو كإشارة إلى طهارتها عند ذلك الحين، بل عند كلِ حين، أخمدت الجدة سيجارتَها

بعدما مسحت بأنظارِها القلقةِ أخاديدَ الحجرةِ وصاحت بصوتٍ متهدجٍ إلى أحد الصبية الذين مرقوا من جنبها:

- هاااا أحضر لي الشاي.

جيء بالشاي وكانت تكرعه بنهم شديد على الرُغمِ من حرارته التي أوجزها بخاره الملفت، لأسارعها بالسؤال:

- أين ذهبتْ هديدةُ يا جَدة؟.

- أطرقت قائلة بصورة حانية: "النهر قد اختصها لجمالها الأخّاذ".

"أصخت السمع إليها بتماثلٍ ملحوظ، كدت أنْ ألتهمها بأنفاسي المتواترة"

- ماذا؟

قالت:

وما احتفظتُه الرهبةُ بالقول من مكاشفة الآلهة، إن جمعاً من سحرة القرية أشعلوا غيظهم بأحجبة غُطت بوساوس الشيطان وبعضٍ من التهاويل التي تودع القهرَ والرذيلةَ بالنهر وكفنوها بلفافة من جلد الخنزير لتندسَّ عند حافته بأحجار أوقدت في سرها براثن اللعنة، وإذا ما ديست بقدم تنبئ بقدوم الشر من إحدى العذارى اللواتي

افتَـتَنَّ بطهـارة المـاء، ارتفـع النهـر بعبابـه ليهـبَ المـوت بسخاء وحشي، ومن ثَمَّ يلفظ ما اقتصدَه للتيه كدليل على غضبه بإيجازه للفعلة، وقيل بأنه يمارسها بلثغ بكارتها كاشـتهاءٍ لمـا أوردتـه تعـاليمُ المـاءِ إمعانـاً لغريـزة النَّمـاء المقدس الذي سور بها، وكمن يعرف أنَّ للموت سطوتَهُ المفزِعة بدَّد من طابعه المعتاد لادخار الجسد ليترك لنا هنـاتٍ تفضـي معانـاةٍ تـذكّرُنا بـاقتراب الأجل مع تلويحة الـذهول المفرطةِ وكأنَّه يـومُ المبعـث، هـذا وقـد انفرجـت الجدة بتسبيحات تتعوذ من كل ما أباحتْه كحرمة لخلخلة اليقين.

لتتماهى إلى حجرتِها بعدما أغدقتْ بحفنةٍ من السعالِ والبصاقِ تاركةً لجسدِها المرتعشِ نومةً حذرةً.

أفَقتُ...

كيـف تحـول النهـر إلـى شـبح يقـبض الأرواح؟ أمسـتِ القريةُ بلا حياة تُذكرُ، حالة الذعرِ التي فسّرها البعضُ على أنها كشفٌ للعارِ أثارتِ السخطَ والتشتتَ فيما بينهم وما حدث لـ(هديدة) سيحدث مع فتيات كثْر فيما إذا انقلبت المـوازينُ، وأصـبحتْ أُحجيـةُ النهـرِ مـأخوذةً بـالوهم، لا

وهمَ، والصراخُ الذي أرعب القريةَ ومن عليها كان حريّاً بأنْ يدفعَنا لإيجاد منفذٍ لِما نحن عليه، لا فتياتَ بعد الآن يلتحقْنَ بالنهر تجنّباً من مكاشفة الخطيئة مرةً ثانيةً، تناهتْ إلى وجهاءِ القريةِ فكرةُ الثأر من ذلك النهرِ الفاجرِ، اعتمدوا مساحيّهم وآلوا بعزيمة هائلة طمرَ النهرِ لتُطمرَ معه البراثنُ جميعُها التي ألحقها بهم، في الليلة التي اعتزموا نيتَهم، أشعلوا فوانيسهم وراحوا ينهالون بخطى متسارعةٍ حيث مكانُ الفجيعةِ، أعرافهم العتيدةُ صيرتْهم بالرفضِ لكلِّ ما هو شائبٌ، تجمّعوا بفوانيسهم المحملةِ بالضوءِ منتزعينَ التردّدَ من مخيلتِهم ليطوّقوه بكلماتٍ تفضي للقصاص، ارتعدت فرائصُهم وهم يُمعنون النظر إلى وجه النهرِ الذي كان رقراقاً متموجاً في تلك اللحظةِ على غيرِ ما استودعَهم من ذعرٍ لتتراءى لهم صورةُ (هديدة) بضحكتِها الهادئةِ وملابسِها المحتشمةِ التي شوهِدتْ بها لآخرِ مرةٍ، صاح أحدهم: إنَّها (هديدة) صاح آخرُ: إنَّها هي. صاحَوا جميعاً بنبرة لا ينقصها التجلّي: إنَّها (هديدة). اعتلت الجلبةُ مناخَ المكانِ وولوا بإدبارِهم إلى بيوتاتهم، وهم يبتغون اليقينَ من ذلك الوَلهِ الذي

أسفرَ عن حقيقةٍ شائكةٍ، في اليوم التالي وعندما اكتنفتْهم الجذوةُ في معرفةِ الأمر، تفاجأوا بانشقاقِ نهرٍ فرعيٍّ يمضي بحبورٍ بين مداخلِ القريةِ لا يفصلُه عن النهر الأصليِّ إلا صورةُ (هديدة) التي احتفظت بابتسامتها وحشمتها، تفحصوها جيداً، ارتفع التكبيرُ والصلواتُ، نوَّه أحدُهم بأنَّ هناك وشماً واضحاً لا تبخسُه العينُ، هو نفسُ الوشمِ الذي أُودِعَ لفتياتِ القريةِ كعرفٍ اجتماعيٍّ على أصالة الشرفِ، أصبحتِ الأنظارُ المرتبكةُ تُفصحُ عن تسربلِها خارج الزمن، أصبحَ النهرُ ملاذاً لمنْ عقرتْ عن الإنجاب لتوقدَ النذورَ وتهاليلَ الشَمعَدان إكراماً لقداسةِ (هديدة) وتثميناً بما لحقَها من حيفٍ وتجنٍّ، وأصبح النهرُ يُعرفُ بـ (نهر هديدة بنت عواد المرزوق)، فضلاً عن فرعِه الذي عُرفَ بابن النهرِ أو ابنِ هديدة على الرُغمِ من أنَّها آثرتِ الطهارةَ بعدمِ المَساسِ بجسدٍ من الطينِ أو جسدٍ من الماء... أرجوكمُ التفتوا إليَّ جيداً لا وجودَ لأصوات مرعبةٍ؛ فنحن من نؤسسُ لأقدارِنا.

بريد الآلهة[1]

هل هي معصيةٌ من الإلهِ أنليل[2] عندما رفس أباه الإلهَ آن[3] ليبتهل بعرشه الذي فُسِّر على أنَّه مصدر لحكمة

---

(١) نشرت في مجلة الأقلام التابعة لوزارة الثقافة العراقية، العدد الرابع، السنة الثانية والخمسون، تشرين الثاني - ٢٠١٧

(٢) أنليل AN - LIL " إله الهواء، وهو ابن "آن" و"كى"، ويقول عنه "جان بوتيرو".. "أنليل يعنى باللغة السومرية سيد الريح والعاصفة، ومجال عمل أنليل هو الأرض، فهو الذي يسيَر البشر... وقد لُقب السيد، ولنلحظ أن الاسم (أنليل) مركَّب من آن = سيد أو إله أو رب + ليل وهي مادة ما بين السماء والأرض من هواء ورياح وسحب.

(٣) آن AN إله السماء وهو يعتبر الأب الأول لكل الآلهة وسيد الآلهة السبع مقررة المصائر، وهو متزوج من "كى" إلهة الأرض، فيحيط بزوجته في الأفق من جميع الجوانب، ويسقط عليها المطر فتنبعث الحياة منها في شكل نباتات وحيوانات وبشر، وكان مقر عبادته مدينة أورو OUROK.

مقدسة لا تخلو من نزعة التأويل المغلفة بالشك مستعيناً برؤيته الكونية الماسكة بالقدر البشري لبعض من النوايا التي تؤسس في ظنها عالماً من الأسئلة المشاكسة أو التي أوقِد في باطنها هَلعٌ يطيح بكلِّ ما هو محصنٌ بالكهنة وتابوات من ورق، قيل أنَّها مناجاةٌ للخلاص من السر الموشوم على الرقيم أو ما تسرّب من الطين لترهب كلَّ من سولت له نفسُه واغتنم الخطيئة باللعب بتعاليمها ودهاليزها المظلمة، أم أنَّ مساحة الحياة لا تكفي لاستيعاب إلهين متجاورين مسوّرين بالقصب والماء؟.

كنتُ على معرفةٍ تامةٍ بما كان يقصده دليل السياحةِ العراقيةِ (شمعون كرمل) الأستاذ في علم الأساطير واللغات القديمة الذي سحبنا بخطىً واثقةٍ عند مكان لا تنقُصُه الغرابةُ يدعى (تل بشارة) منفذ بزوغ الضوء لسلالة المعدان سكان الأهوار سابقاً.

لنمضي حيث بدايةُ خيط النهرِ السائرُ بغنجٍ فضي تتخلله أهازيج اليشن قيل أنَّه مصدر النّماء المتمثلة بالإله نمو[1].

كنا نزعُم أنَّ ما قاله الدكتور (وليم) أحد كبار المتخصصين في تاريخ الحضارات عن وجود أَلواحٍ مخبأةٍ مكتوبةٌ عليها رموزاً مغلقةً قيل أنَّها تمثل سِفراً لتعاليم الآلهة في تلك الفترة ودورها في تنفيذ الأحكام حسب ما دون في صفحة الكتاب المقدس الذي آثرنا التنقيب عنه في ذلك التل.

لا عجب أنَّ ما رأيناه شاخصاً، يحيلنا إلى مزاولة البحث الجاد عن تلك الألواح التي التهمت حقيقتها

---

(١) نمو هي الإله الأم السومرية والمعنى الحرفي لاسمها "ماء الأم" وهذا تشبيه صريح بولادة الكون بالولادة البشرية واسمها يشير إلى المياه الأزلية التي ظهر منها الكون والإلهة، كانت نمو ساكنة ولكنها تحركت وبدافع الحركة والسكون ظهور السماء والأرض كانا في حالة التصاق وعناق. والسماء في الأساطير السومرية ذكر يمثله الإله "آن" وقد تزوج إلهة الأرض "كي" (KI)، وسكبت الأمطار من السماء كأنها المني، فالمطر هنا يأخذ مدلولا جنسيا-فينتج عن ذلك ضهور النباتات.

بعض الشيء، لإماطة اللثام عن تلك الترهات التي تسللت إلينا عبر ما روي من هنا وهناك من سكان المكان، بيد أنَّ الحاجة إلى معرفة السِّر المزعوم عن تلك الألواح دفعنا إلى أنْ نوصد مسامعَنا عما بات يقظاً منذ سنين، أقلتنا المشاحيف للعبور إلى الجهة الأخرى، حيث ما اقتصدناه ليستحوذ علينا خوار الجواميس المتأنية وبيوت الصرايف المزروعة على ضفتي الهور والمرصوفة بحرفةٍ بارعة.

عند عبورنا الضفة الأخرى لإكمال المشوار، انهالت جمل الترحيب التي تبشّر بأناس متخمين بأعراف وتقاليد عتيدة أخذت من مهجهم سيلاً من الوجع المكتنز، تقدم إلينا بعضٌ من الرجال المتلفّعين بيشاميغهم المكورة، بادروا بالسلام بطريقتهم المعتادة، ومن ثَمَّ صاح أحدهم لإيصالنا لديوان الشيخ كعادة سائدة عند مجيء الضيوف، اقتنصت فرصة الحديثِ مع أحدهم عن مكان التل، غير أنَّه قابلني بالتجهم ميمماً وجهته نحو ما اقترب من النظر إلى صريفة مترهلة "هاي صريفة دشر المخبول اللي اللزم من طب للتل"، ومن ثَمَّ أطلق صوتَه فيما بيننا: "يالربع

الجماعة نيتهم تل بشارة". التحمت أنظارهم بصورة ملؤها التوجس لتعتلينا كلمات الترحيب من ديوان الشيخ.

بعدما استقبلنا بحفاوة جَمّةٍ من قبل الشيخ وحاشيته التي توزعت على جانبيه أرحنا أجسادنا المتعبَةَ من عناء الطريق لتتسلل إلينا لحظاتٌ من التأمل عن ذلك التل، وعن أحاديث أبنائها الذين مسَّهم الحذر من دخوله وعن ذلك المجنون الذي ألزمه الهوس وظل مثالاً من جحيم لكل من سوّلت له نيته للولوج في هذا الطريق، لوحّ أحدهم لإبلاغنا عن موعد الغداء، بعد انتهائنا أوكل الشيخ حديثه عن تضاريس المكان وتعدد الأديان وكأنَّه على علم بنوايانا الملتهبة، قاطعه أحدٌ من رفاقنا عن معرفته بتل بشارة وعن حقيقة ما سمعناه، أشاح بوجهه، ثم أردف قائلا:

- "لا أعرف"، لكننا لا نتجرأ على الدخول إليه أو التقصي عن مسالكه تبعاً لحادثة دشر الذي فقد على أثره.

- طيب هلا بادر أحدكم في الدخول إليه سعياً وراء الحقيقة، أَلَم يصاحبكم الفضول في هذه الحالة؟.

- بالطبع لا "قالها بصرامة".
- ولِمَ لا يا شيخ؟.
- واقعاً هذا ما توارثناه.

ومن ثم أودع لملامحه ابتسامة باهتة:

- لا أستطيع إنصافك بالقول، يا عزيزي، فلا نريد أنْ نخسر أحداً من أبنائنا.

تبعاً لما أوردناه من تقصٍّ وبحثٍ حول ذلك التل أنَّه يبتهج عند الغروب والذي أراد الدخولَ إليه ما عليه سوى أنْ يغتسل بالنهر الذي انحدر من جنبته اليسرى ليبتهل للمسير قاصداً إياه، ثمة من زعم من أنْ لا صحة لمثل هذا الكلام، لكن مهلاً ما حقيقة ذلك النهر الفرعي الذي تنحسر مياهه عند الصباح ويهتاج بلمعان ثرّ عند عتبة الغروب؟ أسئلة حائرة يشوبها نوعٌ من التحفظ المرّ حيث لا جدوى من رفع عناء هذه الأجوبة عن كاهل أولادها إلا بالولوج إلى غايتنا التي اعتزمنا إليها.

غادرنا المساء على عجالة مستغلين ضوء الصباح الذي أضحى جلياً جداً، سخّر لنا الشيخ بعضاً من الأشخاص لمصاحبتنا انسللنا بجدية غائرة غير آبهين بكم العقبات

التي ستواجهنا وعن صحتها أيضاً، عند اقترابنا من التل وجدنا كلَّ شيءٍ صامتاً غير أنَّ الريح كانت تسعل بوفرتها المحملة بالكثبان الرملية مما زادتنا حنقاً.

تركت دليلَ السياحةِ ومن معه من رفاقنا يطيلون النظر إلى مسالك الطريق، حانت لي بقايا من القطع الطينية الموزعة على رابية بسيطة لا تبعدها عني سوى خطوات عدة، اقتربت منها بتوجس تلقفت إحداهُنَّ مربتاً عليها لإزالة الأتربة التي احتوتها لتبرز رموزٌ منقوشةٌ باللغة السومرية والتي تقول: "أيها العبد المخلوق من الطين والماء، أيّها العون المسّير بحكمتنا، إنْ تفتش عن مزاغل الآلهة ما عليك سوى أنْ تُطَهِر روحك بماءِ الخليقة لتقضي على أية عاهةٍ بالنفس، ومن ثمَّ أودع نيتَك إلى حيث ما تريد وتوكل عند ضمور الضياء وبلوغ الظلمة والاّ ستمضي نحو العالم السفلي إنْ سرَّحت لمخيلتك العنان".

كانت هذه الكلمات المكتوبة على اللوح بمثابة إنذار عن حقيقة ما سمعناه، تسمرنا قليلاً، ومن ثمَّ عاودنا البحث لكننا كنا نحرص على أن ما قرأناه قد تصاحبه

الصحة، افترشنا الأرض طلباً من دليل السياحة الذي أمعن النظر في خارطته، ومن ثمَّ أردف قائلاً:

- علينا أنْ نجتاز هذا النهر تبعاً لما مدون هنا.

استرقنا النظر إلى بعضنا لأسارعهم بالعبور، كان النهر شاحباً بعض الشيء لا تظهر عليه أية ريبة غير أنَّ ما كان مبيتاً في دواخلنا جعلنا نتقي أبسط الأمور، ترجلت عند جادته لأبدأ بالغوص، اقتربت قليلاً نحو الضفة الأخرى غير أنَّ شيئاً غريباً لفني بالماء ليطمُرني نحو عالم لا أعرف كنههُ بالضبط عالمٍ خارجٍ عن الوقت، انبهرت لأبدأ بالصراخ أين أنا؟ وما الذي حصل؟.

قد تقذفنا الحياة نحو متاهة باذخة الوله مكدودين بلحظة خالية من الصواب لنرتمي بجسدٍ هائمٍ باللغز وفكرٍ بدده التلاشي، فكرٌ أقفله التيه وجسدٌ بلا هوية، منتزعين من دواخلنا صفة الطمأنينة التي هرعت وأخذت معها دفقاً من الأسئلة الشاردة، غير أنَّ تحول الإنسان من يقينٍ مادي إلى وهمٍ في المكان والزمان لتفضي حالته إلى نزعة قلقة غير مألوفة، هذا ما ألزمني بصراع يستحيل إلى استغاثة جعلتني أكتم حاجتي عما أريد، أحسست

بهذا الهوس الذي تلبّسني ليحركني كيفما أراد وبأي اتجاهٍ يرغب، استقمت من مكاني لأمارس شوطاً من الخوف نحو أفقٍ هائمٍ بالدوران أدرت بدني الثقيل ورفعت نظري مفتشاً عن بوصلةٍ للرؤيةِ التي بدت وكأنَّها معدومة على أقل تقدير "من منكم تفحص وجهَتُه في هذا المدى المظلم مستقرئاً عن فكرتهِ ليتفاجأ أنَّه بلا رأس".

كانت الأرض تبدو طريةً من حولي تتموج بصورة مستوية على الرغم من ثباتي على عدم الحركة، انبرت لي حزمة من الضوء مصحوبة بطنين مخيف انكمشتُ على نفسي تقدمني اثنان كانا حليقي الشعر مفتولي العضل ذوا طول فارع مغطين أجسادهم نصف العارية بملابس أظنها جلوداً لحيوانات معينة، أحاطاني على جنبتي بقوة، ومن ثمَّ سحباني إلى حجرة عالية الرطوبة دون أنْ ينبسّا بحرف واحدٍ كنت لا أجرؤ على الحديث معهما من شدة الرهبة، أوصلاني بحزم، ومن ثم قالا لي قبل أنْ يتركاني: "إياك والصراخ لا تزعج الإلهة".

لا علم لي كم سأبقى في المجهول؟ كانت الحجرة أشبه بالقبر مكتوب على بابها خصوم الإلهة "أيةُ آلهة

سأختصم معها؟" كانت الأجواء والألوان التي احتوتني متمرغة بالشؤم لا شيء في هذه الحجرة البائسة سوى الخوف الذي تزعّم المشهد، بعد فترة ليس بالقليلة دخل عليّ نفسُ الشخصين أخذاني إلى بئر مياهه تمور بحركة توافقية، جرداني من ملابسي قال أحدهم: خذ، وأغرف من هذا لكي تمتلئ روحك بالنقاء وتنتزع الضغائن منك، أبصرتهما برفق:

- من أنتما؟ وأين أنا الآن؟.

- اغتسل، ومن بعد الطهارة ستحاكم على ما اقترفته.

سكبت الماء برفق أعطوني ما يسترني، ومن ثمَّ مرراني على حجرٍ يتغير لونه بين الفينة والأخرى، أجلساني على دَكةٍ لا تبعُد عن البئر سوى بعض خطوات، كنت أتحسس أنفاسي المتواترة بصورة غريبة أطيل النظر إلى من حولي ليس ثمة ما أدعيه للوصف غير ممرات عطنة مبنية من الآجر المجفف يتقدمه بهو كبير مشيد من الألواح المدورة رُسِمَت عليه مخطوطات هندسية وصور بشرية وحيوانية ينتصفه بئر المياه الطاهرة، ومكان لجلوس المذنب أو الذي اختصم مع الآلهة -هذا ما أدعوه-

ومنبرٍ مرتفع عند نهاية البهو تحيطه مجموعة من المقاعد الموصولة على شكل قوس.

أحاول أن ألكز مخيلتي عن صحة هذا الموطن الجديد، هل أنا تحت سطوة انزياح أسطوري؟ أو أنَّ مساوئ اللعنة المحرمة قد انتفضت وفعلت فعلتها بي، أطرقت قليلا ليتقدمني مجموعة من الرجال بهيأة واحدة عدا رجلٍ واحدٍ كان يختلف بزيه، كانت خطواتهم واثقةً جداً وتكاد تكون متساوية، تقدمهم الرجل ذو الزي المختلف للصعود على المنبر جلس بتريث ومن ثم توزع الآخرون على المقاعد، صاح أحدهم من نهاية البهو: "أيها العبد المذنب تقدم إلى مجلس الآلهة لتستمع للحكم من الرجل الكبير"، أوجمت برهة لأنهض من مكاني مترجلاً على عجالة من أمري مستفهماً عن الذنب الذي اقترفته، أسهموا النظر إليّ بصورة لا تنقصها القسوة ليتلو الرجل الكبير الحكم:

"إمعاناً للذنب الذي اقترفته بحق الآلهة ومعصيتك لتعاليمها المقدسة ستجلد مائة جلدة وتصبح من الخدم عند معبدها المقدس".

استسمحتهم عن عملي كأستاذ في علم اللغات السومرية، وعن مهنتي التي أُزاولها كباحث في تاريخ الحضارات، لكنْ لا رجعة في الحكم، بعد تنفيذ الحكم اغتسلت مرة ثانية بماء الطهارة ومن ثَمَّ أرجعوني إلى المعبد حيث مكان بيت الخدم.

كانت الحياة تسير إلى الوراء، أوكلت أمري واستسلمت لقدري ورحت أتماشى مع رفاقي من العبيد الذين يمتهنون الزراعة ومرافقة الماشية والخدمة في معابد الآلهة، كنا نخرج صباحاً لممارسة مهامنا الموكلة لنا، أُسرف النظر إلى من حولي وألاحظ كمّ الوجع والحيف الذي لَحِقَ بهم كان العمل شاقاً جداً، وكنا نباع ونشترى ما بين حينٍ وحين بأثمان بخسةٍ ونساق كما تساق الشياه إنْ لم نكن أقل منها بقليل.

أدركت تماماً أنَّ لعنة الآلهة قد احاطتني بهذا العذاب ولا مناص من أي شيءٍ أفعله على الإطلاق، امتثلت إلى طقوسهم وعاداتهم وتقاليدهم كنت أشاهد القرابين التي تقدم إِرضاءً للإلهة ومراسيم الكهنة ومعابدهم لأنصاف من تزعم الربوبية في صناعة القرار، لكنَّني كنت أحاول

انتزاع هذا العالم من مخيلتي والرجوع إلى عالمي الذي ولدت ونشأت به، كنت أبحث عن كينونتي في هذا العالم الذي كنا نقرأه كثيراً وننعته بالخرافة في بعض من تفاصيله، كنت حذراً جداً من الحديث حتى مع نفسي لما أشاهده من المرارة التي يتعرض لها أيُّ شخصٍ يغضب الآلهة.

استقرأت خبرتي في حضارة سومر للخروج من هذا العالم لكنْ بلا جدوى كان الفضاء مغلقاً جداً لا مفر من هذه المحنة إلاّ بالغور في واقعهم المتشعب.

أخبرنا أحد الخدم الذين كانوا على مقرُبة من القصر الكبير أنَّ الإله (أنليل) سيُعين ملكاً جديداً وينظر له بعين الرضا ويعطيه صولجاناً ويزفه بعرسٍ بهي، انتابني شعور غريب عن كيفية لقاء الإله (أنليل) وسط هذه الجمهرة، تحضّرنا لهذه الفرحة استعداداً لتنصيب ملك جديد في المعبد الكبير للآلهة، احتشد الخدم والكهنة والملوك الذين عينوا سلفاً لمباركة الملك الجديد، هتَفتُ بصوتٍ عالٍ: أريد التحدث مع الإله، أريد التحدث مع الإله، انتبه

مجلس الآلهة وبعضٌ من الجمع لصراخي، تلقفتني ثلة من الأيادي لإيصالي إليه، ليأذن لي بالحديث:

- اسمح لي أيَّها الإله بعرض محنتي.

- تفضل.

- أنا أستاذ في الحضارة السومرية نُقلت بلعنة لا أعرف كنهها بالضبط من عالم إلى عالم آخر تبعاً للوصول إلى تلٍ يُعرف بتل بشارة بحثاً عن كتابكم المقدس وعن تعاليمكم المدونة به وقد عوقبتُ على إثرها وأنا الآن أروم الرجوع إلى عالمي لأكون حراً... هلا تأذن لي بالرجوع؟.

- وماذا تعني أنْ تكون حراً؟.

- أنْ أتصرف بإرادتي بدون قيد أو شرط وأنْ لا أكون ضمن العبيد والخدم.

- وهل في عالمكم يمنحونكم هذه القداسة.

- نعم... قلتها بتأمل محسوب.

- وهل الحريةُ التي تدّعيها تجعلك أنْ تعصي أوامر الآلهة.

- وأيُّ أوامرٍ عصيتها؟.

- أنْ تفتش عن مزاغلنا وتبحث عن عالمنا... طيب وماذا رأيتَ أيُّها العبدُ!

- رأيتُ في كل مكان محفلاً من الآلهة والكهنة... أنتم لا تختلفون عنا كثيراً فالوجع الذي ننغمس به قد توارثناه منكم.

- سأرجعك إلى موطنك شريطة أن تتقصى عن عالمك أنت ولا ترجع إلى الوراء فسر الوجود واحد والطبيعة بتناقضاتها وإشكاليتها واحدة أيضاً... ارجع أيها العبد ارجع.

فكرتُ فيما قاله متمعنا في أجوبته المهولة وعن مكاشفته الصريحة وبلحظة هلامية قُذفت إلى ذات النهر الذي نُقلت منه، أيُّ تحولٍ كونيٍ هذا؟.

الغريب في الأمر أنَّني عدتُ إلى نفس المكان لأصطدم بسؤال المجموعة المرافقة لي، هلا رأيت التل وبأي اتجاه احتكمت إليه، ارتعدت مما قالوه للوهلة الأولى... أين كنت أنا كل هذا الوقت؟، ألا توجد فاصلة زمنية ما بين موطن وآخر أو ما بين وجع وآخر...

ارتفعت بهامتي مستديراً نحو ملامح هذا الكون الذي وجدته لا يختلف كثيراً عن معنى عالمهم السفلي.

أسئلة محرمة

(1)

منذُ أنْ تبدَّدت صدمة الاغتيال التي وقعت في منتصف الشهر الفائت للأستاذ عمار صاحب المكتبة التي تنتصف الشارعَ الخلفي، حتى تنافست الألسن بفطرتها المعهودة وثرثرتها المحكمة متخمة بتحليلاتٍ باتت تشرع الأبواب الموصدة أمام الواهمين أو الغافلين ممن تهاوت أذهانهم بعيداً عن مسرح الحدث، تمادت الأقاويل وطفحت الآراء وأخذ صداها يتسع، في الأسواق، في المقاهي، في حكايات النسوة المشعشعة بتخمينات تميل إلى الجد، وفي بلاهة الصبية الرابضين بأفواه الأقبية والممرات، فمنهم من أطلق القول جزافاً بأنَّ سراقاً مجهولين هم الذين فعلوا فعلتهم ليقتلوه، هذا ما جعلنا مكتظين بأفكارٍ باتت تطفو جزعاً لينمو فوق ارتباكاتنا سؤالٌ جوهريٌ "ما الذي يسرقونه"؟ وما الحاجة وراء قتله؟ هل هو المال؟ أم

مآرب أخرى، ومنهم من ترفّع عما قبله مؤكداً بدوافع أهل زوجته التي طلّقها قبل ثلاث سنوات وهو السبب الأكثر وقعاً داعماً ما أسلفه بأدلة بلهاء؟ ومنهم من ألزم الحديث بقولة "عن طريق الخطأ"، وهذه نكتةٌ كبيرةٌ أنْ تقتل أحداً عن طريق الخطأ، وهل يتوجب على القاتل الاعتذار؟ إنْ كان حريٌ بنا التوقف عند هذا الكلام وأخذه بنظر الاعتبار، تزاحمت الأحاديث وما من جدوى من استرجاع الأستاذ عمار التي فجرت حكايته لغزاً هائماً بمتاهاتٍ لا نعرف الطريق الأوفر حظاً لفك شفرتها أو التقصي عن أغوارها لحد هذه اللحظة. في تلك الفترة التي تخرجت من الجامعة وقعدت قرابة سنتين دون الحصول على عمل مناسب أو وظيفة محترمة تبطل من نكد العوز لعائلة استشهد معيلها بعجلة مفخخة انفجرت عند عتبة السوق القديم وراح ضحيتها العشرات من الأبرياء الذين لفظتهم صفاقة الحياة، لذا قرروا النزوح نحو قيامة مثلى تليق بأيامهم الموصدة، فُقد والدي ولن نعثر على جثته كاملة فقد سُحق نصفه الأول من جراء الانفجار، أما نصفه الآخر فهوى مع الدراجة التي لم نجد

لهـا أثـراً يُسـتَدل، هكـذا اسـتبدلت أحلامـي بكـوابيس استحالت إلى حياة طارئة لا تعرف الهوادة من أمرها، حياة أمدها القلق، ثمة عقبات راحت تحصد ما أملت به ذاكرتي المدللة لأنتزع منها طموحات أخذت طريقها للاندثار.

فـي الأشـهر الأولـى التـي أعقبـت استشـهاد والـدي، دفعتني حاجتي الملحة التي لازمتني ملياً للحصول على سبيل للخلاص من البؤس الذي أوغلنا به لا لشيءٍ، بل لإيقـاد فتيـل الأمـل الـذي جعلنـا نصـطدم برعونـة القـدر، فرحت أتعكز على أصدقائي الخلص الذين ارتبطت معهم بهم مشترك هذا ما جعلني لا أتوانى من حثهم لمساعدتي فيما انجابت قدماي إلى بعض من الأقرباء علّهم يجدون لـي منفـذاً آمنـاً أسير وعـائلتي إلـى حيـث الجـدوى كمـن يستعين برمق شحيح المنال ليطمئن نفسه بالكاد حيث لا مناص إلا من مواجهة الواقع على حقيقته، عائلة بأفرادها الأربعة ولدين أحدهما في المراحل الأولية من الدراسة وما يكبره في السن يفوقه بالمرحلة وبنت في الجامعة وأمٍّ باتت لا تستطيع فكَّ رمز الخط، يحتمون براتب تقاعديٍ

هو المعيل الذي يجبرنا على الكفاف، هذه هي المكافأة المقدمة لعوائل الشهداء الذين ابتلعتهم براثن السياسيين تحت ذريعة الإرهاب، كنت قد اتخذت لنفسي عهداً سابقاً لأوانه بأن لا أمتنع عن أي عمل لا يتناسب مع شهادتي المزعومة التي اصطفت مع صورة والدي الشهيد فراحت تقاربه بالمعنى، هذه هي الدنيا تأسر من ليس لديه حيلة وتسري على خلاف ما يمنِّي المرء نفسه، عندها أصبحت لا أقوى على التفكير بطريقة تمكنني من التصدي لهذا الهم الكبير، وما أنا به الآن انتابني شعورٌ باليأس أحسست بضموري إزاء احتياجات عائلتي التي أخذت بازديادٍ ملحوظٍ، كيف لي أنْ أحتمل كل هذا العذاب الذي باغتني فجأة حيث لا قدرة لي على تحمل هذه المسؤولية، ثمة حاجة ماسة تقتصني مع الوقت لتجعلني ضعيف الرجاء إلى ما أنوي إلية، هكذا بتُّ بفكر شارد ما انفكت عني حاجتي الملحة لطلب عملٍ أضحى بعيد المنال.

(2)

لا تـزال حادثـة سـوادي الحـلاق الرجـل الـذي تصـدّع عقله من جراء ما فعلته ابنته الكبرى سمية وهروبها من بيت زوجها الداعية المعروف الذي شاع صيته تقوىً وعرفاناً أثرها الفاعل في الجلبة التي ملأت أركان المكان، عندها أخذ الناس ينتزعون من مخيلتهم تلك الأسئلةَ المحرمةَ المتمسكةَ بالنار ليقذفونها بوحاً على جادة المكاشفة، كان الناس يبصرون أوجاعهم بتنهدات تلقفتها أفواههم المبللة بالتردد بصورة يومية، المدينة التي سول لها أن تنمي أرباباً مفترضي الطاعة عليها أنْ تهادن الموت كيفما حلَّ بوصفه واقعاً لا مفر منه أبداً كتبريرٍ أبلهٍ على استجابتهم للذل والخنوع لمن أطّر نفسه بهالة إلهية باتت هي الطريق المزكى لشرعنة أحكام تلكز أحلام الآخرين لتطمر من تطمره في النار أو تزج من ابتلعت كينونته إلى قصور الجنة الذين أوهموا الناس بأنهم حراسها الليليون، هذا ما اغتمت به أحاديثهم وعن السبب الذي دفع الحلاق أن يزوج ابنته ذات العشرين ربيعاً لرجل يماثل والدها بالسن أو يفوقه بسنوات عدة، الرهبة

التي شاخت في ذلك الحين كانت هي المبرر الوحيد إزاء هـذه الصـدمة التـي جعلـت الأنظـار المرتبكـة تبـدو نافـذة بعض الشيء.

عندها أخذ الحلاق مكانه في حجرته البائسة مدجّناً أيامه بالنحيب الذي لم يفارقه حزناً على ابنته التي ساقها إلـى الجحـيم بإصـراره علـى الـزواج مـن شـخصٍ يكبرهـا عمراً، أتذكر جيداً كيف أخذت هالة ذلك الداعية بالتفتق حيـث الضـوء الـذي ألفـه بـدون صـخبٍ أو ضـجيج وأثـار الـود عنـد الغالبيـة مـن النـاس بصـورة مـائزة، وقتئـذ كانـت المسميات تبدو بنصف ملامحها، الجميع كـانوا منغمسين بواقـع مسـحور لا شـيء يكشـف الضـبابية التـي حوطـت القـادم مـن خـارج الحـدود أو ربمـا الـداخل ممـن انتمـى وتماهى مع مجريات الوقت، ما من بصيص أمل خجول يناور حـاجبي الأفـق معلنـا الصـرخة/الحقيقة التي تجعلنـا فـي حالـة مـن الوضـوح لا الخضـوع لتبيـان الشـرخ الـذي أضـحت ارتسـاماته جليـة جـداً، لا حاجة ليقينٍ عقلاني أو دليل مكتنز الحجة فالموت/الرضوخ حتمية الفقراء هذا ما ارتضيناه لأنفسنا تابعاً حميمياً يذكرنا بمصائرنا البائسة أو

كما أودعه لنا أسلافنا الراكسون بالهم حرزاً سرمدي المعنى أو أن تبقى تأملاتنا حبيسة في دائرة ضيقة من الوهم ما برحت أنْ تكلل بالخرس الواجب أو التمحك المستحب إمعاناً لقناعة أفراد لهم حق الفرض كأولوية من ضمن أبجدياتهم أو أساليبهم الواهية، ما بين الظلام والضياء أسئلة ثكلى ما بين التقوى والخداع عيون تترقب بشراهة جذلة، لربما الفوضى التي جردت الأشياء من مسمياتها استطاعت أنْ تصدّر لنا شخوصاً مجهولي الهوية ليكون لهم القدح المعلى في احتواء المشهد وجعلهم في الصدارة، الداعية واحد من الذين ارتوت قداستهم من حيث لا علم لنا به كذلك هي الحال مع بعض من الذين يؤلهونه بهوس غريب أو من مريديه المتشبثين بظلاله عندما يتهادى بقوامه الممشوق وطلّته الناصعة مسترسلاً كعادته بالتكبير ثم ما يلبث أنْ يكشف عن محياه بابتسامة ما انفكت عن حلقة وجهه العريض رافعاً ما تعلق من كفه الأيمن التي احتضنت أخمصه مسبحة تبدو باهظة الثمن مبادراً بالسلام على من يصادفه في الطريق عند خروجه من بيته الذي لا تبعده عنا سوى

مسافة محشوة ببيوتات قليلة، نلمحه بوضوح بخطواته المتريثة عندما يشرع آخر الصباح بالذهاب إلى المسجد الذي ينتهي به الحي ليؤم الناس بصلاتهم ويحتكم في أمورهم الشرعية، ناهيك عما أورده من استحصاله قطعة أرض لبناء الجامع متكفلاً بكل احتياجاته، كان الناس عامتهم ينظرون إلى جلالته بعينين متوهجتين لا تشوبهما شائبة الحديث أو مغايرات وجهات النظر مما دفع الذين يطيلون النظر في أنفاسه التقية بأن لا تزاحمهم بعضٌ من التوقفات التي باتت واضحة المعالم، يغلبني الظنُّ أنَّ الناس في حينها لم يشاطرهم البال أو ينجدهم الحال في التمعن بمن حولهم وخصوصاً بمن التصقت به صفة "التابو" ثمة من ارتحل بعيداً عن مناغاة الواقع وارتداء الخيال بصفته القادم/المنقذ الذي سيملأ الأرض جمالاً أو ظلَّ واهناً بما يؤهله بأن يصبح دمية باردة لا تستطيع التحرك إلا بمن ائتمرها. لم يكن لهذا الوضع المأزوم سابقة إنذار فقد اختلت الموازين وتداخلت المصائر فيما بينها وأصبحت النوايا أكثر علانية في تداعيات الأحداث التي أخذت بالتماشي مع مجريات العصر، ما كان للمدينة

إلا أنْ تغفو بعينٍ واحدة علّها تحترس من الجنون الذي افترس درابينها المتقدة بالوجع، كانت البداية منذ ذلك الحين عندما التحق المجهول بسمية الفتاة البهية ذات القوام الجميل والقد النحيف معلنة الفرار أو الموت فلا جزم بما ليس لدينا يقين به، كان ارتباط الداعية بسمية مسألة يشوبها التحفظ بعض الشيء فيما إذا استبعدنا شرع الله فإننا نجد ثمة فارقاً طبقياً وفكرياً لا تنقصه اختلاجات الشك المريرة، حينها ما كان لسوادي الحلاق الرجل البسيط صاحب محل الحلاقة المحتفظ بمهنته على مدى الأربعين عاماً الفائتة مستأجراً دكانه العجوز من الحاج كامل صاحب العمارة المقابلة لبيت الحلاق بأنْ يقابله بالرفض، هذا ما فرضته علية تضاريس المكان أو صفاقة الأفكار المتشبثة بالرهبة والتي تؤول إلى معنى واحد، لا أحد يتجرأ بالرفض أمام خلفاء الله في الأرض حيث الطريق إلى الجنة وعينٌ تبصر ذلك الطريق! الأحداث التي أخذت بالتسارع والموافقة التي حصلت كانت بمثابة تشريف للجميع ممن ينتمون بصلة للحلاق، التذمر طفح على وجه المدينة لكنَّ الوجه الثاني أخذته البهجة

والحبور، إيهٍ يا سُمية التي ترفعت عن كل شيء إمعاناً لشيءٍ يتحفظ قولة بالرفض، إيهٍ أيُّها الفقراء الذين يكترعون الموت بالنيابة، إيهٍ أيَّتها الحياة التي تشرب أسئلة المعنى بهذيان مرٍّ يستحيل إلى غفلة واجبة... لكنَّ الشيء المهول الذي حصل هو هروب سمية من بيت زوجها بدون سبب يربأ إليه أو غاية يشار إليها، هذا ما ادعاهُ زوجها التي نفرت في حينها جميع التهم المنسوبة إليه إيذاناً لمكانته السماوية عندما أخذت حادثة هروبها المفاجئ تتراقص بين أفواه الناس لاعناً اليوم الذي اتسخت صورته بهذه العائلة المارقة.

(3)

في خضم الأَحداث المضطربة التي سوَّرت المدينة والتي بانت ذروتها بالتوهج عند حادثة سمية وما تبعها من مأثور سلبي بالغ الشطط كان لزاماً عليّ أنْ لا أتوانى من مهمتي التي اعتزمت نيتي إليها حيث العمل الذي قوض من أفكاري الشيء الكثير، كانت والدتي التي أخذت ببيع ما تبقى من الحلي قد بادرتني بصراحتها

المعهودة بإيجاد سبيل للرزق مهما كانت متاعبه، في هذا الواقع المرير الذي انخرطتُ به لم يكن لي إلا خيارٌ واحدٌ معول عليه هو إيغالي بأي عمل لا يسمو إلى طبيعة ما أتمناه، إذ لم أكن على قدر كاف من الرفض أو التفكير في ذلك طمعاً لانسلالي من ظرف أحمق جديرٍ بالتشظي ونزولاً عند رغبة عائلتي التي كادت أنْ تكون كرامتها على المحك، حيث لا مفر من الفاقة المنغرس بها، لا جدوى من الإتيان بأفكارٍ مثالية كانت وما زالت تأملنا بالحياة الهانئة لتحصدنا أناساً ميتين، أحسب ما قاله لي صديقي منتصر عن حاجة الحاج كامل صاحب عمارة الإشراق المعروفة عند سكان المدينة إلى موظفي خدمة وهذه الوظيفة لا تحتاج إلى تفضيل الخبرة أو التشبث بعنان الأكاديمية البلهاء، عمل لا يتمناه الأميون، بل لا يحتكم إليه عاقل قط، ما أبلغني إياه وعن عمله كمسؤول استعلامات قرابة الأربع سنوات وعن معرفته بالحاج كامل وما عليه من تبعات ممضة جعلتني أتمهل بعض الشيء، لكنَّ البعض الأكبر قادني إليه، للحاج كامل مكتبه البارز من عمارته الفارهة المرصوفة بمجموعة لا بأس بها

من المحال المستأجرة التي اكتظت بالمتبضعين على اختلاف حوائجهم أما الذي أغلق تباعاً فهو الشاهد على ما فعلته ابنة الحلاق ليلتصق بعبارة بارزة اللون "المحل للإيجار"، أوصلني منتصر إلى مكتبه عند أذان الظهر حيث موعد صلاته واستراحته، في هذا الوقت كادت الأرض تطمرني خجلاً لولا استرجاعي لكلماتٍ احتفظت بها من والدتي والتي كان أثرها الفاعل لابتعادي عن بعض من الأفكار الحالمة:

- تقبل الله يا حاج، أقدم لك صديقي حازم الذي وعدتك به.

ارتجفت شفتاه بالتسبيح بعدما أطرق مستأنساً بلملمة سجادته المنسدلة ليتهادى بخطواتٍ واثقةٍ إلى مكتبه الذي انتصف الجهة المقابلة من باب الدخول:

- منا ومنكم... وما هو اسمه.

- لأسارعه بالجواب: إسمي "حازم" وأنا بكالوريوس آداب فرع الجغرافية.

كادت ما استبشرت به خيراً من جملتي الأخيرة تشعره بالدونية على حد ما نفثه من جواب مرّ:

- أنا لم أسألك عن تحصيلك الدراسي سؤالي واضح جداً، العمارة ليست وظيفة حكومية يا بني، ليرتمي بأنظاره الساهمة إلى منتصر، ألم تعلمه ما هي وظيفته؟.

- نعم نعم يا حاج... أخبرته.

- طيب، الدوام من الساعة السابعة صباحاً إلى السابعة ليلا، عُلمْ.

لما أبلغني ذلك الرجل الموتور بما لا يصح أنْ يقوله بهذه الصورة المكفهرَّة، وقبل الخروج أردف منتصر بإحضار وجبة غداء فاخرة من السمك الطازج إمعاناً لحضور "الخير والبركة" لزيارته بعدما ينتهي من صلاته بالجامع، ومن ثم أمهلني قائلاً:

- هلا رأيت مستأجراً لذلك المحل الذي عفّر جبهته ذلك القواد

- عن قريب إن شاء الله، عن إذنك يا حاج.

ما كان للحديث أنْ يستمر أكثر مما اختزله صاحب العمارة، الحدس يقين قلق يزعم أنَّه الحاذق الأمهر على بيان صحة الرأي أو إشباع الرغبة المتخلخلة لانتقاء الغيب حكماً نادياً لا سبيل من مغادرتنا عنه أو التهكم

عبثاً في إبصارنا للأمور التي بانت صراحتها واضحة بعضَ الشيء، على قدر ما استشفيته من ذلك الرجل المستفز على قدر ما تيقنت من عدم الاستهانة من جديته الجارحة، وأنا على الرغم من هذا وذاك أزعم بأنّي المنغلق في انطباعاتي للوهلة الأولى حيث السير على ما تقصدته تلك الانطباعات، لم يك لمنتصر الدخول في معمعة السجال بقدر ما أسدى لي رأياً عن طبيعة الحاج كامل ومزاجيته الشائكة، وهناك ما أضمره خيفة من المعلن المشاع إمعاناً لطبيعة عملة بيد أنَّ ما لاحظته من ملامحه الغارقة بالتشتت كانت قد بددت لي بعضاً من الأسئلة النافرة التي أخذ حضورها بالغياب تماشياً مع ما خصص لي من أجوبة تفضي عن عدم التحدث بأي شيءٍ آخر، ما كان لمنتصر أن يبوح أكثر مما اختصر حديثه بعدم التدخل فيما ليس له بدٌ "طباعه، سلوكياته، المواضيع التي يتبناها، علاقته مع رفاقه من أبناء المكان"، فيما انجابت عيناه إلى أحد الأشخاص الذي يحاول جمع كتبه التي امتلأت بها المنضدة الخارجية الموضوعة على

طرفي باب الدخول والتي لا تبتعد كثيراً عن عمارة الحاج كامل:

- هذا الشخص لا تقربه أبداً.

"قالها بحذر مشيراً بحاجبيه اللذين انكمشا بصورة مستفزة مع إرتماقةٍ حذرةٍ من رأسه الذي تآزر بالشك"

- استدرت إليه ببطء محكم منوهاً إياه بالسؤال، ولماذا لا أقربه؟ هل هو مصاب بالجدري؟!.

- لأنَّه العدو اللدود للحاج كامل، أحسبه مصاباً بالهوس.

- تفحصته ثانية بالتفاتة مترددة أخذت حظوتها من مسرى الحديث، وما اسمه؟.

- الأستاذ عمار صاحب مكتبة الإبصار فهو من أهل النار!.

- من أهل النار! وما هو معيار أهل النار بالنسبة لديك يا منتصر؟.

أودع حديثي التيه حيث منتهى إليه سؤالي الناري زافراً ما تيسر من أنفاسه المرتبكة برمقه إلى الساعة التي سورت يده اليسرى، ثمّ أردف قائلا: "عليّ أنْ أغادرك

الآن لإحضار وجبة الغداء"، لا تتأخر عليك الحضور في الساعة السابعة صباحاً، لا تتأخر أرجوك.

- طيب طيب... دمت بسلام.

(4)

ذهول يؤنبه الوقت...

سأعدّ وجبة الفطور، كوني بخير يا أمي، لا تنسي أنْ تخبري ليلى بما طلبته مني بالأمس سيتوفر عن قريب، أبلغيها الطمأنينة. وكما هو الحال فيما انكشف عن ذلك الصباح المثخن بالقرف حيث العمل الجاد بكل ما يحمله من متاعب مهلكة ماجت بها النفس وأضحت مستاءةً بعض الشيء خصوصاً لمن لا يجيد التعرف على غير ما نشأ عليه، فإذا ما تمهل في انجازه لواجبه تراءت له هنات أحدهم من سكان العمارة معلنة الضجر لإنجاز ما تبعته من مهام، كان الحاج كامل على علمٍ بكل ما يدور في العمارة هذا ما استنتجته من حديثه المترع بالتوصيات عند نهاية كل أسبوع، ما كانت لتوصياته أن تأخذ أكثر من غايتها المعتادة حيث متابعة نواقص العمارة وإتمامها

بجد، غير أنَّ حرصه على عدم الاحتكاك بالسكان من داخل العمارة وخارجها وخصوصاً ذلك الرجل صاحب المكتبة المشؤومة ذو الأفكار السيئة -على حدِّ ما قاله- أثارت رغبتي للتعرف عليه بنية القصد أو عن طريق المصادفة، فيما إذا قفزت جملة بديهية من أحد العاملين بخصوصه، جعلتني أتفرس ما يقول بحذر جمّ عسى أنْ أبتغي حقيقته الصحيحة. الرجل الخرف -بائع الكتب- هذا ما يطلق عليه عند أيّة استراحة نقضيها من متاعب العمل مستدركين حديثنا بالضحك أو ما تيسر من القول، أواه ما لذلك الرجل من ترهات، يزعم منتصر على أنَّه مصاب بالهوس وأنَّه من أهل النار، هوس ونار وما علاقة هذا بذاك، مؤيداً كلامه بالهذيان الذي يكتبه على وجه مكتبته (مدينة مترعة بالذل، موت، مقدسون جميعهم، لا تسألوا أربابكم) وهذا ما شاهدته بوضوح ملفت -أقول في سري- عند انصهار الليل فجراً حيث السماء المرتبكة بالضياء وقبل البدء بفتح مكتبته يمسك نفسه ليطيل النظر كثيراً إلى ما تمنحه عيناه الحاسرتان فصاحة الرؤيا بأسئلة موجعة، يزفر تارة منها بالذهول ويغادر بعضها تارة

أخرى، فضلاً عن عدم استلطافه من قبل الرجل البركة والحاج كامل اللذين لا يطيقان وجوده بالمكان فهو مجنون يا صديقي، "جنون هوس وجحيم"، بيد أنَّ الصراخ النافذ للحاج كامل كان قد بدد لي بعضاً من الصور الباهتة التي تشكلت عن واقع ذلك الرجل اللغز لتمحو ما خيّل لي من ملامح كادت أنْ تكتمل:

- أبعد هذا السافل من عتبة العمارة، أبعده يا منتصر

- حسنا يا حاج... أرجوك يا عمّ سوادي اذهب من هنا... سنتدبر أمرك فيما بعد.

- لن اذهب مالم أعرف بمصير ابنتي سمية.

- حسناً، حسناً سأتدبر أمرك فيما بعد، ولكنْ عليك الذهاب من هنا.

- حسبي الله ونعم الوكيل... يقولها مراراً.

أحسب أنَّ منتصراً يدَّخر من العبء الكثير، لكنَّه يكتمه بغرابة هائلة لا يظهره جهراً إلاّ أنَّه ينفث تذمره بين ما يلاحظه من تقصير في العمل هذا ما جعله ينعم بحسن النية لبعض من الأمور التي يتبناها بعيداً عن استشارته لمرؤوسه، أرقبه في أحايين كثيرة يتهرب من أسئلتي

المكررة عندما أبادره عن علاقة الداعية بالحاج كامل، وما شأن سوادي الحلاق وابنته الهاربة بالحاج كامل، ولماذا كل هذا الكره لبائع الكتب الذي لا نحسبه عدوانياً إلى الحد الذي صورتموه لنا! أسئلة تترى تمضي بين تتمة الحديث بلا أجوبة مقنعة، الأيام التي مرت في العمل كانت حريةً بأنْ أتعرف على بعض من الأشخاص المناوئين لتصرفات الحاج كامل المريبة أو غيره ممن تسوروا بالدين فصاروا أحجية مبهمة المفاتيح، لكنهم كانوا يبتلعون ألسنتهم بصراحة القول أو يحاولون التسربل بحجة وافية لاتقاء الشر أو خشية لكشف المحظور، الجميع يمتهنون الخنوع بطريقة ورعة جداً ساعين إلى دحرجة المعنى بلباس التأويل، الجميع بلا مصائر بلا هوية بلا.، كيف لمدينة تعشق قاتليها بسحرٍ كوني الرؤى، أشاطر ذاكرتي أنَّ ما قاله ذلك الكتبي الهرم عند مشاهدتهِ لصاحب العمارة كونه الصوت المتفرد في المكان ليصبح علامة فارقة ترهب ممن ارتضى أو اقتنع بغير ما آل إليه الواقع "هذه ضحايا قداستكم... هذه ضحايا قداستكم"، مشيراً إلى سوادي الحلاق الذي

تقمصه الجنون "أما آن للمدينة أنْ تنتفض أما آن للمدينة أنْ تنتفض"، سكون سكون/صوت متفرد/الكتبي/صوت متفرد... بعد يوم ونصف اليوم وجد الكتبي مقتولاً برصاصة متمرغة في رأسه -تحديداً في رأسه- مرتمية بفوضى كتبه الكثيرة، عندما أخرجوه ثمة قطعٌ بيضاء طوقت جدران المكتبة، قطعٌ أَلصقها بطريقة فنية بارزة، ألتزمتني عبارة غريبة مكتوبة بالأحمر القاني (أنا أفكر/أنا أُقتل...) ارتعدت كثيراً منسحباً بأنظاري إلى فضاء المدينة حيث الصمت الذي أطبق عليها، الرصاصة التي قتل بها الكتبي لم تصدر صوتاً! أم نحن في خرس المكان، هل الحقيقة بكماء، من الذي قتله؟، لا صوت، لا سجال، نحن، أم هم، أم صوته الحافز، هل صوته حافز فعلاً أو أصواتنا خافتة؟، حاولت جاهداً تذكر ما قاله بتأنٍ غير أنَّ براثن الصدمة جعلتني أهوي وأفكاري بعيداً، أحسب أنَّ كلام الله الذي رفع على غير وقته وبصوت الداعية كان قد توه حقيقة أمدها السكوت. "أوواه أيتها المدينة النائمة حتى أبناؤك يقتلون بلا صوت".

هامش التصق بالنص:

- الساعة السابعة والنصف وجدوا الأستاذ عمار مقتولاً في مكتبته ترحموا علية كثيراً، لكنهم لعنوه بعد حينٍ من الرحمة.

- الرجل الداعية، إنسان مبجل كيف يقترن بعلاقة وطيدة مع الحاج كامل الرجل المرائي الموبوء؟ أتذكر أن جدتي كانت قد نصحتني بعدم مصاحبة المسيء... الجدة خاطئة والداعية على صواب.

- منتصر الذي يعرف كل شيء ارتحل بجسده إلى المقبرة القديمة... عفواً عفواً هم الذين أودعوه هناك تجنبا لغفلة بالحديث.

- الحاج سوادي ألتزمه الدخان وبلادة الممرات الطويلة فلا خوف منه بعد الآن على الرغم من أن أدعية الخير والبركة المعقمة بالإيمان الجديد قد أغدقت عليه بفصاحتها المعهودة عند مشاهدته بملابسه المكرورة.

- أمي أخبري ليلى أن عريساً تقدم لها عن طريق الحاج كامل الرجل الذي أعمل عنده وهو داعية معروف هل توافق؟.

هاجس[1]

هو ذلك السؤالُ الموشومُ على لسانِ جدتي التي كانتْ تنفثهُ بجملها العاصفةِ لاهثةً بمكاشفتي عما تحفظهُ ذاكرةُ اليومِ من عبثٍ يقترفُ بقصدٍ أو بغير قصدِ، غالباً ما كانتْ عيناي منكبةً نحوها تعتزمُ الصراخ بوجهها من شدة الغضب، لكنّ شيئاً ما يمنعُني من ردها لأتركها واذهب للنومِ لاعناً شيخوخة العمرِ التي تجعُلها لا تأبهُ من الثرثرةِ ليستحوذَني صبري من دون أنْ يندّ عني أيُّ صوتٍ يحقنُ الفضاء بصدىً مسموع على اعتبارِ أنّ للصمتِ بلاغةً يعجزُ عنها أساطينُ اللغو، لكنَّ استفاقةَ الضجرِ الناتجةَ من تصوراتها غير الصحيحةِ وخوفها وحرصَها الدائمينِ بأنْ لا تخسرني كما خسرت والديَّ بانفجارِ عبوةٍ لاصقةٍ كانتْ موضوعةً لهما في السيارةِ الشخصيةِ جعلني أن

(١) نشرت في صحيفة المدى العراقية بتاريخ الاثنين ٢٠١٥/١١/٩ العدد ٣٤٩٧.

أعطي لها الحقَّ الكثيرَ ولا أجادلها أبداً لأحتمل هراواتِ الكلامِ الممضةِ التي أذكتْ سطوتها عليَّ على الرغمِ من أنّي آثرتُ السكوت كمداً كمن يحفرُ الأرضَ بأظفاره مشروطاً بعدم التذمرِ، بل إنَّ هاجساً كان يداخلُني عن كيفيةِ استبصارِها بعبثي أو ما أجني من ترَهات... هل أنَّها تحفظُني جداً لأُصبحَ متاحاً لها؟... أو أنَّ اعتقاداتها بأمورٍ غاية بالغرابةِ قوّضتْ من أفكارِها وجعلتْها تتأكدُ مما تعتقد... يا الله، لطالما كانت تقولُ لي: إنَّ اللهَ جعل من ظلالِنا خفراً علينا... فأهنأ ولا تتمادى بالعبث... أضحكُ في سري كثيراً، ما الذي تقولهُ هذهِ العجوزُ، وإذا صحّ ما تقولهُ فلماذا كلّ هذه الفُوضى التي ننغمسُ بها في وضح النهار؟، آهٍ لو أن ظلالَنا تُبوحُ مسخنا جهراً لما تمادينا بالخطأِ، فكرتُ مراراً بهذا الكلام محاولاً الاقتناع بغيرِ المُقنعِ، لأسايرها فيما تدّعي من أنّ ظلي يقربُني جداً ويفضحُ شيطنتي... أستأذنهُ أحياناً لممارسةِ نفسي لكنَّهُ كان يربأ إلا أنْ يبوح لها... أرقُبهُ يخفتُ خجلاً إمعاناً لمصدر يقظتِهِ الرابضةِ في شرفةِ الكونِ غير أنَّني لم أكتم غيظاً لمغادرتِهِ محاولاً الحدَّ من تحليلاتِها المجانيةِ:

- يا جدةُ، يا جدةُ، قد أوصدت السماءُ بابَها وتوارتْ شمسُها في مزاغلَ بعيدةٍ من هناك ساحبةً معها مخبرها المعلن... لا أعرفُ وأنا متسمِّرٌ أمامَها محاولاً انتزاع ما تقولُهُ، تذكرتُ أستاذاً لي في علم التأويل وهو يحدثُنا عن براثنِ القبحِ التي باتت تنخرُ في مجتمعاتِنا العربيةِ "النور الذي أضاء جانباً معيناً من الكونِ لا يُولّي دُبُرَهُ عن الجانبِ الآخر منهُ، كم مصدرٍ من النورِ نبتغي لبيان أخطائنا"؟ ضحكتُ كثيراً وأنا أتمعَّنُ بمسرى النور الذي أضحى فقيراً جداً، لربما هنالك حفيدٌ على جانبٍ آخرَ من الكونِ قد أسرف بالعبثِ.

المؤلف في سطور

ميثم الخزرجي
الاسم: ميثم محمدعلي كاظم الخزرجي
الاسم الأدبي: ميثم الخزرجي
التولد: العراق -النجف- ١٩٨٧/٢/١٨
التحصيل الدراسي: ماجستير علوم الحاسبات تخصص ذكاء اصطناعي
رقم الموبايل: ٠٠٩٦٤٧٨٠٢٥٤٣٠٩٩
الإيميل: mytham.ma٨٧@yahoo.com

- عضو الاتحاد العام للأدباء والكُتاب في العراق.
- عضو اتحاد الأدباء والكتاب فرع النجف.
- أمين الشؤون الثقافية السابق في إدارة نادي السرد في اتحاد الأدباء والكتاب فرع النجف.

المؤلفات والمشاركات الأدبية:

- بريد الآلهة: قصص قصيرة، الفائزة في مسابقة الشباب عن اتحاد الأدباء والكتاب في العراق لعام ٢٠١٩، صدرت عن الاتحاد العام للأدباء والكتاب العراقي.

- النزوح نحو الممكن: قصص قصيرة، منشورات اتحاد الأدباء فرع النجف الشرف، صادر عن دار أحمد المالكي، ٢٠٢٠م.

- مُتنزَّهُ الغائبين: قصص قصيرة،صادر عن دار ومكتبة سامراء للنشر والتوزيع، ٢٠٢٤م.

- مجموعة قصصية جاهزة للطبع.

- مقالات في المعرفة والثقافة، كتاب جاهز للطبع.

المسابقات والمشاركات:

- شارك في عدة ملتقيات للسرد من أهمها ملتقى الشباب العربي المقام في دولة الكويت من خلال ترشيحه لتمثيل العراق بالقصة القصيرة عام ٢٠١٧ بالإضافة إلى مهرجانات للسرد خارج المحافظة.

- (تحولات النظام الثقافي في الرواية العراقية المعاصرة) ورقة بحثية شارك بها في مهرجان بين ثقافتين الذي أقيم في السعودية عام ٢٠٢٤.

- فاز في مسابقة الشباب الصادرة عن اتحاد الأدباء والكتاب العراقي عن مجموعته القصصية بريد الآلهة لعام ٢٠١٩.

- كرم في مهرجان عيون للإبداع العربي دورة الموسيقار العالمي نصير شمه من ضمن الشخصيات الفاعلة في الثقافة والأدب.

- فاز في مسابقة دار سطور العراقية للقصة القصيرة عن قصته (غصة كونية).

- فاز في مسابقة جريدة دليل النجف للقصة القصيرة عن قصته (صراخ متئد).

- فاز في مسابقة دار تشرين المصرية عن قصته (سادن المقبرة).

- فاز في مسابقة دار مها المصرية عن قصته (الغرفة).

- فاز في مسابقة دار السكرية المصرية عن قصة (ما لا يدركه الحلم).

- أذيع نصه (الغرفة) في البرنامج العربي "قصص مسموعة من السودان والعالم العربي."

- عين الجحيم: النص الفائز في مسابقة قصص على الهواء التابعة لمجلة العربي الكويتية بالتعاون مع إذاعة مونت كارلو الفرنسية العدد أبريل لسنة ٢٠١٩.

- محنة الرائي: النص الفائز بالمرتبة الأولى عربياً في مسابقة قصص على الهواء التابعة لمجلة العربي الكويتية بالتعاون مع إذاعة مونت كارلو الفرنسية العدد أبريل لسنة ٢٠٢٢.

- القائمة القصيرة في جائزة نيلسون مانديلا للآداب عن مجموعته القصصية (محنة الرائي).

- تناولوا نتاجه القصصي في الدراسات الأكاديمية داخل العراق وخارجه.

- ترجمت بعض من أعماله إلى اللغة الفرنسية

الاهتمامات:

لديه اهتمامات كبيرة في الاطلاع على المناهج النقدية ونظريات المعرفة والأسطورة والميثولوجيا، وكتابة القصة

القصيرة وكتابة المقالة الأدبية والاجتماعية والسياسية وقد نشر نتاجه الأدبي في أكثر من مجلة وصحيفة عراقية وعربية مقروءة مثل (مجلة الأقلام التابعة لوزارة الثقافة العراقية -مجلة الأديب العراقي التابعة لاتحاد الأدباء والكتاب العراقي- مجلة آفاق أدبية التابعة لدار الشؤون الثقافية في وزارة الثقافة العراقية - مجلة العربي الكويتية - المجلة العربية السعودية - مجلة الإذاعة والتلفزيون المصرية - مجلة البيان الكويتية - مجلة الرقيم العراقية - مجلة السنبلة العراقية - مجلة الشارقة الإماراتية - مجلة أفكار الأردنية - مجلة الفجيرة الإماراتية - مجلة أدب ونقد المصرية - المجلة الليبية - مجلة البحرين الثقافية- مجلة الفيصل السعودية- صحيفة الصباح - صحيفة الزمان - صحيفة المدى - صحيفة العالم - صحيفة طريق الشعب - صحيفة المواطن - صحيفة بلادي - صحيفة المستشار - صحيفة العراق اليوم - صحيفة النهار - صحيفة الشرق- جريدة القصة المصرية) بالإضافة إلى مراكز ثقافية عديدة.

المحتويات

الإهداء..... ٥

مصادفةٌ لا يقبَلها الصفحُ..... ٧

الغُرفة..... ١٩

صراخ متئد..... ٢٥

ما لا يدركه الحلم..... ٣٧

صرير الأمكنة ٤٣

بريد الآلهة ٥١

أسئلة محرمة ٦٧

هاجس ٨٩

المؤلف في سطور ٩٣

المحتويات..... ٩٩